كنيسة العذراء مريم والشهيد أبانوب
بالمقطـــم

صرخة ألم

راهب من جبل أنطونيوس

" فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح "
(مر ١٥ : ٣٧)

اسم الكتـــاب : صرخـــة ألـــم
المؤلـــــف : راهب من جبل أنطونيوس
اسم المطبعـة : تاتش برس – ٠١٠١٧٨٩٣٧٤
الطبعـــــة : الأولـى ٢٠١١ م
تجهيزات فنية : صبحي صادق – موريس ونيس
رقم الإيـــداع : ٢٠١١
لطلبات الجملة : ٠١٢٤٢٧٢٤٣٥

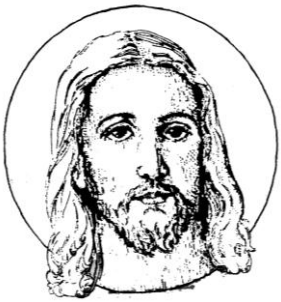

إهـــداء

❖ إلـى قلـب الـرب يسـوع الـذى صـرخ صـرخة النصر والخلاص المجيدة ، المقدمة لجميع العـالم ، والتى دوى صوتها فوق رابية الجلجثة .

❖ إلى قلب كل قارئ ملأت قلبه الأحزان ، لكـى يعلـم أن ذاك الـذى جـاز آلام الجلجثـة المبرحـة بصرخاتها الأليمة ، يعرف الشوكة المؤلمـة التـى توخز مشاعرك ، ويسمع صرخات قلبك الصامتة ، وصرخات فمك المسموعة .

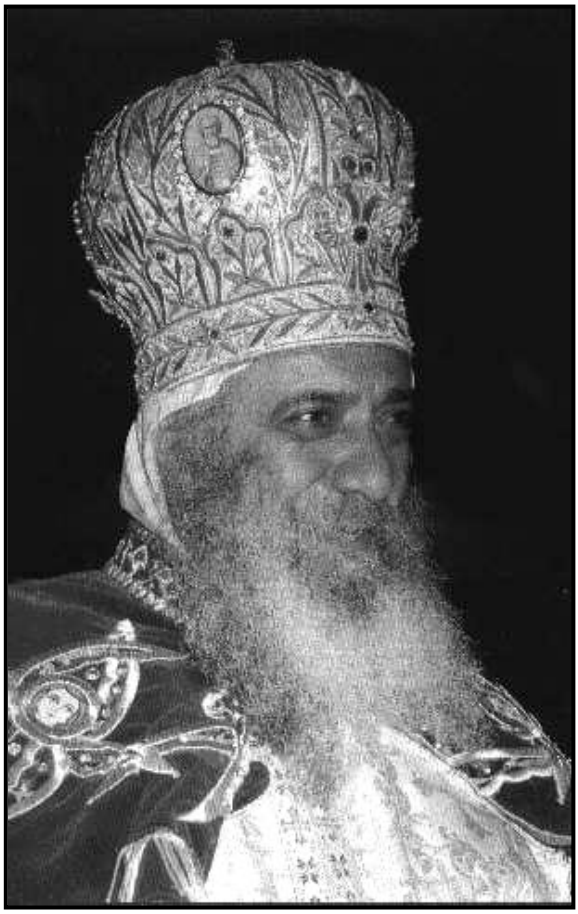

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

(٤)

١ ـ صرخة الهجران

فى إحدى الولايات الأمريكية ، ذهبت فتاة إلى كاهن الكنيسة ودموعها تسيل من عيونها بغزارة ، وهى تبكى بلا انضباط وعلى نحو مربك . وبدأت تكاشفه بقصتها :

اضطر والداها لأن يتزوجا لأن أمها كانت حاملاً بها ، وكان زواجاً غير مرغوب فيه ، ولم تكن هى أيضاً مرغوباً فيها .

وعندما كانت فى الثالثة والنصف من عمرها حبلت أمها ثانية ، وكان والدها على علاقة بامرأة أخرى ، وحبلت تلك المرأة أيضاً فى الوقت نفسه ، مما أفضى إلى نزاع عنيف ثم إلى الانفصال .

وكانت ذاكرة هذه الفتاة قوية ..

تذكرت بوضوح اليوم الأخير الذى فيه غادر والدها البيت نهائياً .

تذكرت أنها كانت فى سريرها الصغير حينذاك ، تسمع المشاجرة الشديدة بين والديها ، واللحظة الرهيبة التى فيها ترك والدها البيت بلا رجعة ، وخلّف هذا نواة خبيثة من الألم العميق داخلها .

وبينما كانت هى والكاهن فى غمرة استرجاع تلك الحادثة الأليمة خلال الصلاة للشفاء من وطأة الذكريات الأليمة فى أحضان الرب القادر أن يفعل ما يبدو مستحيلاً ، وكل زمن لديه هو (الآن) ، فو القائل : " **قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن** " (يو ٨ : ٥٨) .

إن ذكرياتنا المزمنة معروفة لدى سيد الزمن ، وخلال عملية الشفاء صرخت الفتاة صرخة ألم قوى مدمر ، كان دفيناً سنين عديدة .

فسألها الكاهن : [لو استطعتِ أن تقولى شيئاً لوالدك من سريرك الصغير فى تلك اللحظة ، فماذا كنتِ تقولين ؟]

وفجأة أنعش روح الله ذاكرتها ، فتذكرت كيف شعرت فى تلك اللحظة بالهجر والدمار ، فصرخت لا بصوت الشابة ، بل ببكاء طفلة : [لا يا أبى .. لا تتركنى] .

وتجلى كل ما انطوت عليه تلك اللحظة من رعب وألم بأنات

لا يُنطق بها .

وبعد ذلك صلى معها الأب الكاهن ، واتضح له أننا لو شئنا التعبير عن صرخة الهجران على الصليب حينما صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً : " إلهى إلهى لماذا تركتنى " (مت ٢٧ : ٤٦) .

بعبارة يفهمها الأطفال ، لما استطعنا الاتيان بأفضل مما قالته هذه الفتاة : [لا يا أبى .. لا تتركنى] .

فتذكر ما اختبره يسوع على الصليب ، وتأكد له أن يسوع يفهم الصرخات المسموعة كثيراً فى أيامنا ، صرخات ملايين الأطفال : [لا يا أبى .. لا تتركنى] .

ولكن المؤسف أن كثيرين من الآباء والأمهات ، لا يأبهون بصرخات الاسترحام هذه ، إلا أن المجروح الشافى يفهم هذه الصرخات ، ويرثى لمشاعر أولئك الأطفال .

عند هذا الحد بدأ الشفاء الحقيقى فى حياة هذه الفتاة ، عندما ألقت بأحمالها عند أقدام المصلوب .. ذلك لأن " **أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها .. مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفينا** " (إش ٥٣ : ٤ – ٥) .

إن أقوى الألحان جاءت من فوق صخرة الجلجثة ، وسط الظلام الدامس هناك صرخ يسوع صرخته العظيمة : " **إلهى إلهى لماذا تركتنى ؟** " (مت ٢٧ : ٤٦) .

إن صدى هذه الصرخة مازال يغلف العالم بنغم حزين ينطق بالصدق ويجسم عمق الجهاد وقسوة الفراق ، وفوق الكل يكشف قمماً رائعة من الحب والوفاء .

إن الصرخة المدوية التى خرجت من ذلك القلب الجريح هى أغلى الأنغام قاطبة وأقواها ، ومازالت تغلف عالمنا الحزين وتبعث فيه بنور الأمل والرجاء لكل وحيد ومضطهد وبائس ومسكين .

إن هذه القيثارة العجيبة الفريدة ظلت فوق الصليب تبعث بألحانها الخالدة إلى البشرية المحطمة البائسة حاملة لها أنشودة العزاء والرجاء .

إنها قيثارة الحب التى تعزف ألحانها فى ليل البشرية الطويل ، لتقوى الهمم وتشدد العزائم ، وتولد البسمة والفرحة حتى ينبلج النهار .

صديقى القارئ
هل تعانى من ألم عميق فى داخلك ؟
هل لديك ذكريات أليمة تؤرق حياتك ؟
هل تعرضت فى حياتك للهجران من أحب الناس إليك ؟
هل تريد أن تصرخ من عمق قلبك صرخة ألم كان دفيناً من سنين عديدة ؟

تأكد أيها الحبيب أن يسوع يسمع صرخات قلبك الصامتة وصرخات فمك المسموعة ويرثى لمشاعرك .

كل ما عليك لكى تشفى من جراحاتك هو أن تطرح بأحزانك وآلامك عند أقدام المصلوب .

إنه يعرف الألم الشديد الذى يجرح قلبك ، ويعرف تلك الآفة التى تصعد من قرارة نفسك .
إنه يعرف الشوكة المؤلمة التى توخز مشاعرك . إنه يعرف ذلك . الخصم العنيد الذى يبغى إتلاف حياتك .
إنه يعرف الصعوبات التى تواجهها ، والآلام التى تجتاح حياتك .

إنه قادر أن ينتزع منك وعنك كل ألم ، ويمتعك بالشفاء .

يقول المرتل : **" من الأعماق** صرخت **إليك يارب "** (مز ١٣٠ : ١) . إنها صرخة خارجة من عمق القلب ، من عمق المشاعر والأحاسيس ، من عمق الاحتياج ، من عمق التعب والضيق ، من عمق الشعور بالعجز والفشل ، من عمق المشاكل التى تحيط به .

لقد صرخ (يونان) وهو فى عمق الضيقة من جوف الحوت قائلاً : **" دعوت من** ضيقى **الرب فاستجابنى .** صرخت **من جوف الهاوية فسمعت صوتى "** (يون ٢ : ٢) .

حقاً .. إن أعماق الألم والتعب تساعد على الصلاة ، بل تدعو إليها وتمنحها عمقاً .

لقد أدرك يونـان بركـة الضيقة والألـم فـى حياتـه ، فـالألم هـو الـذى أعاده إلى الله ، والألم هو الذى أعاده إلى رسالته التى هرب منها .

إن الصراخ يدل على مقدار الحاجة ، وجدية الصلاة .

إنها صرخة ألم ..
إنها صرخة استغاثة ، وصرخة إيمان ورجاء واحتياج ..

صرخة قوية مدوية تذكرنا بقول الشاعر :

مثـــل صـــــرخة غريـــق بينــــده لقـــارب نجـــاة
بينــــده بينــــده بكـــل قـــواه للحيـــاة

إنها صرخة وليست مجرد نداء ، صرخة تجذب حنان الرب كقول المزمور : " **من أجل شقاء المساكين** ، وصراخ البائسين ، **الآن أقوم – يقول الرب – أصنع الخلاص علانية** " (مز ١٢ : ٥) .

إنهـا صـرخة تـذكرنا بقـول الـرب : " **أفـلا ينصـف الله مختاريـه** الصارخين **إليه نهاراً وليلاً** " (لو ١٨ : ٧) .

وقوله : " **إنى قد رأيت مذلـة شعبى .. وسمعت** صراخهم .. **فنزلت لأنقذهم** " (خر ٣ : ٧ – ٨) .

وقول الوحى الإلهى : " **فصعد** صراخهم **إلى الله من أجل العبودية** " (خر ٢ : ٢٣) .

ما أعمق عبارة " **فصعد صراخهم إلى الله** " ..

ويقدم لنـا الـوحى الإلهـى مثـالاً هـو صـراخ أهـل نينـوى فـى تـوبتهم ومذلتهم ، فلقد لبسوا المسوح " **وصرخوا إلى الله بشدة** " (يون ٣ : ٨) ، وسمع الله صراخهم واستجاب لهم ورحمهم .

عزيـزى القـارئ

يشقى الإنسان ويتعب .. ويهدده الخوف ويعتصره الألم ..
تارة يغلبه الشيطان ، وتارة يتخلى عنه القريب والصديق ..
وفى أحيان كثيرة تخذله نفسه .. ويكون هو نفسـه ثقلاً علـى نفسـه .. وتدوى صرخة الألم أمام التحديات .

يستسلم البعض .. ويخور الآخرون .. ويفشل الكثيرون ..
أما الإنسان المسيحى – إنسان الله – فيقابل هذا التحدى بالإيمان .

عزيـزى
هل عصفت بك الرياح يوماً ما ؟
هل أحسست بالألم يعتصرك ؟
هل أعيتك الحيلة ، وأصبحت لا تدرى ماذا تفعل ؟
هل قابلتك صعاب وقف العقل إزاءها عاجزاً عن التفكير ؟

وفى مواجهة هذه التحديات ألا تشعر أنك بحاجة إلى قوة أعلى منك .. قوة ترفعك فوق نفسك قوة تعينك على أن تغلب التحديات التى تهدد حياتك وتبدد فيك الكنز الثمين .

يخبرنا العلماء أنه يوجد ضغط على كل بوصة مربعة من جسمنا مقداره (١٥ رطلاً) ..
وتستطيع أجسادنا احتمال هذا الضغط لأنه يوجد ضغط داخلى يدفع ويقاوم الضغط الخارجى ، وبهذا يحدث تساوٍ وتوازن بين الضغطين .

كم من ضغط أقوى يضغط بشدة على أذهاننا وأنفسنا كل يوم ؟
كم من خطية ! كم من حزن !
كم من تجربة ! كم من أسى !
كم من صعوبة !
كم من مخاوف ! كم من قلق !

كيف يمكننا أن نقاوم هذا الضغط الخارجى بدون قوة داخلية ، تلك التى يمدنا بها روح الله ؟

إن روح الله هو الشئ الذى يجعل الحياة ممكنة وموجودة .

فطالما موجود فيك روح الله ، فكل وحشة وكآبة وحزن يمكن على الأقل احتماله ..

أما إن فارقك روح الله ، فقد مضت معه كل تقوية، لا نور يرشد ، لا صوت يُعطى معنى للحياة ، ولا يد لتضبط وتثبت وتهدئ .

إن أقسى أنواع الآلام هى
..
لتزكية إيمانك ..
لتنقى فيك الحياة ..
وتؤهلك لغنى الملكوت

٢ ـــ أنـــوار الحيـــاة

إذا أُديرت آلة السينما ، انطبعت الصور على الشاشة البيضاء ، ولكنها لا تظهر إذا كانت الغرفة مليئة بالضوء ، أما إذا أظلمت الغرفة أو قاعة العرض ، ظهرت الصور بأجلى وضوح .

وهكذا كثيراً ما يسمح الله بأن يطفئ أنوار حياتنا ، لأنه يريد أن يرينا بوضوح رحمته ولطفه . فالليل هو الوقت المناسب لرؤية النجوم .

أخـى القـارئ

إذا جازت نفسك سجون الضيقات فلا تحزن ، ففى عمق السجن رأى يوسف الصديق لطف الله .

فيقول الوحى الإلهى عنه : **" وكان هناك فى بيت** السجن **ولكن الرب كان مع يوسف "** (تك ٣٩ : ٢٠ ــ ٢١) .

كان الرب معه فى قصر فوطيفار ، ولكنه عندما وضعوه فى السجن ، ذهب معه الرب أيضاً .

لا شئ فى الوجود يفصلنا عن الله سوى الخطية ، طالما كنا سائرين مع الله ، فالله سائر معنا . إن تركنا أعالى الجبال المشمسة المنيرة ، وسرنا فى الوادى المظلم ، فهو معنا .

إن رجل الله كالمدينة الذهبية لا يحتاج إلى الشمس أو القمر ، لأن الرب الإله هو نوره .

فالنفس التى ذابت فى عشرة الله تجد كل الأمكنة على حد سواء : **" فقلت إنما الظلمة تغشانى . فالليل** يضئ حولى **. الظلمة أيضاً لا تظلم لديك . والليل مثل النهار** يضئ **. كالظلمة هكذا النور "** (مز ١٣٩ : ١١ ــ ١٢) .

فى داخل السجن نجد أن الرب **" بسط إليه لطفاً "** (تك ٣٩ : ٢١) .

ورغم أن رئيس السجن يكون قاسياً ، غليظ القلب ، على أنه كانت هناك قوة أخرى خفية ، استطاعت أن تميل قلبه تجاه الشاب السجين (يوسف) .

فالرب يستطيع أن يفتح أشد القلوب قساوة ، فجعل الرب نعمة ليوسف فى عينى رئيس السجن (تك ٣٩ : ٢١) .

من اليسير جداً على الله أن يحوِّل قلب أى إنسان كما يحول الفلاح مجرى الجدول الصغير ليحمل الخصب إلى الأرض الجرداء .

ثم بعد ذلك رفع الله يوسف ونقله فى طرفة عين من السجن إلى العرش .

واليدان اللتان كانتا تشقيان فى الخدمة كعبد قد ازدانتا بالخاتم الملكى .. والقميص الملون الذى نُزِعَ عنه بقسوة من إخوته ولُطِخَ بالدماء .. والثوب الذى تركه فى يد الزانية . استُبدلا بأفخر الثياب الملكية .

عزيزى

هل تضغط على حياتك الضيقات ؟

هل يخور قلبك وأنت تنظر إلى الأمام للمصائب التى تهددك ؟

تشجع ، فإن هذه ليست إلا حركات التيار الذى يدفعك إلى المسيح وإلى حياة أفضل .

اعلم أيها الحبيب .. أنه وراء كل غيمة من الغيوم شمس مشرقة ، ووراء كل ظلمة صليب لابد وأن يكون هناك نور للقيامة .

ولابد أن تعبر الغيوم التى تجتاح حياتنا ، لتشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها .

ومهما ازداد الليل ظلاماً ، لابد أن يتفجر نور الفجر ليشرق على البؤساء والمتألمين فى كل مكان وزمان ، بشعاع من دفء السماء ونورها الساطع الذى يخترق أستار الظلام .

إننا نؤمن بكل تأكيد أن الشمس خلف الغيوم .

حين تبدأ الغيوم تحيط بك لا تخف .. آمن فقط بإله المستحيلات . بالإيمان تجده حاضراً ، فمسرته فى تقديم النصرة حين تبدو مستحيلة .

حين يصير الظلام دامساً يحل بنوره ، فتتبدد الظلمة ، وتتحول

الأحزان إلى أفراح .

ما أجمل كلمات تلك الترنيمة التى تقول :

[ثق حبيبى أن الشمس خلف الغيمة .. خلف الغيمة] .

إنها كلمات تبعث الأمل فى نفس الإنسان ، وتعطيه الرجاء بأن الشمس سوف تشرق لتبدد الغيوم التى تلبد سماء حياته .

أخى القارئ

لاتتردد أن تسير وراء سيدك نحو رابية الجلجثة – حيث ذروة الألم .

فمن وراء ظلال الجلجثة سيلمع لا محالة نور القيامة .

الظلام يسبق الفجر ، ولكن انتظر ، فالفجر سوف يلتحم بيوم بهيج .. وسوف يشرق نور الفجر أكثر فأكثر إلى أن يصير نهاراً كاملاً .

ومن خلال عتمة الأيام القاتمة تنبثق أشعة الشمس المشرقة .

إنه لم يوجد فى التاريخ كله أظلم من تلك الليلة التى انتهت بأول جمعة عظيمة . ومع ذلك ففى فجر القيامة مهـَّد القبر المظلم إلى طريق بهاء السماء .

إن آلام هذا الدهر وكل مشاكل الحياة أوجدها الإنسان بسقوطه ، فعندما إبتعد عن الخير وُجِدَ الشر ، وانبثق شعاع الألم ليرسم صورته الحزينة على وجوه البشر .

يحدثنا الوحى الإلهى عن الأرض فى بداية خلقتها فيقول : **" كانت الأرض** خربة **وخالية وعلى وجه الغمر** ظلمة **"** (تك ١ : ٢) .

إنها صورة كئيبة تصور لنا حالة الأرض فى بداية تكوينها . ولكن هناك رجاء . فإن كانت هناك ظلمة على وجه الغمر ، فهناك أيضاً **" روح الله يرف على وجه المياه "** (تك ١ : ٢) .

وقد بدد الله ظلمة الأرض بقوله : **" ليكن نور فكان نور "** (تك ١ : ٣) ، ولم يدم الظلام كثيراً .

ثم عمَّرها الله بالأشجار والزهور والطيور وكل المخلوقات ، فلم تعد الأرض خربة وخالية بل عامرة ، وتحولت إلى أيقونة جميلة تعلن

عن عظمة وإبداع الخالق .

ونحن بلا شك نمر بأوقات ، نشعر فيها بأن حياتنا خربة وخالية ومظلمة ، لكن يجب ألا ننسى أن روح الله قادر أن يحوِّل ظلام حياتنا إلى نور ، والخراب إلى حياة جميلة مليئة بالثمار .

إن أولاد الله هم الذين بالرجاء يسبقون طلوع الصُبح ، ويشعرون أثناء ليل الأحزان بذلك الفرح الخفى الذى يبشر بشروق فجر جديد ، ومعه دفقات النور ، وكل توقعات الصباح .

إنهم يعتبرون الألم هاتفاً وحافزاً للرجوع إلى الحق ، والسير تبع ناموس البر ، ودعامة هامة للروح لحفظها فى مستويات الخير ونموها الدائم .

٣ ـ أغنيـات حلـوة

إن داود النبى والملك يقدم لنا مثالاً سامياً فى تحمل الآلام والتجـارب ، فإنه إذ صهرته المحن والضيقات المريرة ، خرج من بوتقتها مطهر النفس نقى القلب .

كل الإشارات تؤكد أن مزموره الجميل " **الرب نورى وخلاصى** " (مز ٢٧) تشير إلى إقامة داود فى مغارة (عدلام) (١ صم ٢٢) هرباً من وجه شاول الذى يريد قتله .

هذا المزمور صرخة أليمة ، لاشك فى أنها طالما انبعثت من قلب داود فى تلك الأيام المحزنة ، الحالكة السواد .

ولاشك فى أن الصخور المحيطة به طالما سمعت صرخاته الأليمة، وشهدت دموعه ، وأحست بمرارة نفسه التى أشرفت على الهلاك .

كلما رجع بذاكرته ، وتأمل فى تلك الهاوية التى أوشك أن يتردى فيها ، ولكنه نجا منها بكل صعوبة .

إنه يطمئن نفسه بأنه وسط هذه الظلمات الحالكة التى اجتازتها نفسه ، قد آمن بأن يرى " خيرات الرب **فى أرض الأحياء** " (مز ٢٧ : ١٣) .

إن أغنيـة القلـب الكسـير ، أغنيـة الأنـات والـدمع الغزيـر ، أغنيـة الأمراض والفاقة والحزن المرير ..

يا لها من أغنيات حلوة ، تلك المنبعثة من الأحزان ، تلك التى تتغنى بأفراح السماء ، وتقدم للجالس على عرش مجده والذى سبق وشاركنا الألم والحزن والبكاء .

إن الكنيسة تدين بكثير من أبهج أغنياتها وترانيمها الروحية العميقة إلى الآلام المرة التى اعتصرت قلوب أخلص أبنائها .

لقد داست أقدام التجارب والمحن والآلام كما فى معاصر الزيتون – قلوب الكثيرين ، فأخرجت منها عصارة اختباراتهم فى أغنيات من أعمق ما سمعته الأذن البشرية .

إن أعداء داود وقفوا أمامه طول حياته ، وكان من نتيجة هذه الحروب والعداوة القاتلة ، مزامير داود التى تغنى بها لله فى أيام النصرة وأيام المحنة .

وبكاؤه ملأ الزمان القديم ، كما ملأت أناشيده كل الدهور ، وأصبح سفر مزامير داود منبع إلهام ومصدر شجاعة وقوة إيمان حتى اليوم .

إن الخليقة كلها تئن وتتمخض ، وعالمنا الحاضر الذى نعيش فيه مثقلاً بالهموم والآلام .

فكم من قلوب جريحة بسهام متنوعة من الآلام ، وكم من نفوس مهمومة تعبت فى البحث عن حياة هادئة هانئة .

إن الآلام والشدائد كثيراً ما تكون نافعة لحياتنا وخلاصنا ، بينما الحياة المترفة قد تقودنا إلى الضياع .

كم من أناس هلكوا بسبب الحياة السهلة المترفة التى بلا متاعب .

نعم .. إن كثيرين من الناس يفضلون الحياة السهلة والطريق الرحب الذى لا توجد فيه حواجز تمنعهم من السلوك حسب أهوائهم وحسب رغباتهم بكل حرية أو موانع أو قيود ، ولكن النتيجة تكون هلاكهم ، لأنه **" واسع الباب ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك . وكثيرون هم الذين يدخلون منه "** (مت ٧ : ١٣) .

لذلك يضع الرب لأولاده بعض الآلام والمتاعب فى الطرق الدنيوية التى يختاروها حتى يستفيقوا من خداع هذه الدنيا الباطلة ، وينتهوا إلى حقيقة شهواتها الزائلة ، فيكفوا عن السعى وراءها أو التعلق بشهواتها الخادعة .

إن الرب يتطلع على كل أمور أولاده ، ويعرف ما ستكون عليه حياتهم ، ولذلك فهو يسمح بالآلام والتجارب التى هى لخيرهم .

إن (داود) عندما كان مطارداً من شاول الملك ، هارباً من برية إلى برية ، وساكناً المغارات وشقوق الأرض ..

فرغم هذه الضيقات والشدائد التى اجتاحت حياته ، كان يترنم فى وسط الضيق بالمزمار والقيثار ، مصلياً أعمق الصلوات ، وناشداً أعذب المزامير ، وهو فرحاً طاهراً شاكراً شفوقاً ، مملوءً ثماراً صالحة ،

وكل ما صيته حسن .

أما بعد ذلك ، عندما عاش حياة الترف والراحة ، وسكن القصور ، الأمر الذى قاده إلى خطايا متنوعة ، كادت أن تؤدى إلى هلاكه . إلا أنه تاب وقام من غفلته .

لذلك يجب علينا أن نثبت فى إيماننا محتملين التجارب اليومية فى صبر وشكر .

إن الآلام تزيد من احتقارنا للعالم الحاضر والحياة الدنيا ، وتدفعنا للاستعداد للعالم الآتى والحياة الأبدية .

فلنحمل صليب الآلام عن طيب خاطر ، لأن هذا هو الباب الضيق والطريق الكرب الذى يؤدى إلى الحياة (مت ٧ : ١٤) .

إن الآلام دافع قوى لرفع قلوبنا إلى السماء .

إن احتمالنا للآلام بشكر يثبت إيماننا بالرب ومتانته وعظم ثقتنا فيه وقوتها ، وكمال محبتنا له وصدقها .

فأولاد الله تحل بهم التجارب ولا يدخل الشك إلى نفوسهم .

يصبهم المرض ولا يتذمرون ، توهن أجسادهم وتضعف قوتهم ، ومع ذلك لا تضعف إرادتهم ..

يقاسوا الاضطهادات والأتعاب ، ومع ذلك يظلوا ثابتين فى إيمانهم ، وتخرج من أعماق قلوبهم أغانى الفرح والتهليل .

إن القيثارة تحوى كل قوة الفن فى أوتارها ، ولكن إذا لم تمسها يد بقيت بلا صوت ، فهى تحتاج إلى يد قوية تحرك هذه الأوتار .

وكذلك نفس المؤمن ، فهى تحوى أسمى بركات السماء ، غير أنها لا تعطى صوتاً دون أن تُمس بيد التجارب والآلام القوية .

نحن نفرح فى آلامنا لما يتبعها من مجد ..

نحن نفرح لأن " **عند المساء يبيت** البكاء ، **وفى الصباح** ترنم " (مز ٣٠ : ٥) .

إن الأغنيات التى تدوم وتنتقل من قلب إلى قلب ، هى تلك المنبعثة من الآلام والأحزان .

٤ ــ القبــر الثلجـى

فى وقت الاضطهاد ، كانت إحدى الفتيات تنام ليلة بعد الأخرى فى زنزانة بلا تدفئة ، وكانت ترقد على أرضية من الأسمنت .

ومع أن الوقت كان شتاء ، إلا أن ملابسها كانت خفيفة لا يمكن أن تحفظ لها شيئاً من الدفء ، لكنها شهدت قائلة : [فى كل ليلة حين كنت أرقد فى ذلك القبر الثلجى ، كنت أسلم نفسى بين يدى الله ، وقد كانت تحدث المعجزة ، إذ أن تياراً من الهواء الساخن كان يحيط بى طوال الليل ، فكنت أتمتع بالراحة تماماً] .

حين يتدخل الله ، فإن العذاب لن يكون له أى تأثير .
حين يأتى الوقت للبعض منا أن يضعوا حياتهم لأجل المسيح ، بعدما يكونوا قد نالوا اختبارات كثيرة عن النجاة والحفظ الإلهى ، فإننا سوف نصادف معجزة إلهية كما فى حالة (استفانوس) شهيد المسيحية الأول .

لقد جعله الله يرى السماء مفتوحة ، فالرجم لم يدفع (استفانوس) إلى اليأس ، بل على العكس ملأه بالفرح الإلهى حتى أضاء وجهه كوجه ملاك (أع ٦ : ١٥) .

إن الرب قادر أن يجعل ما يسبب لنا الضرر أو الألم بلا تأثير بالنسبة لنا .

إن الرب يشدد أولاده ويقويهم وسط آلامهم .. إن عنايته تقترب بصفة خاصة من أولئك الذين يتألمون بدافع الحب له ، والذين يجوزون فى المخاوف وفى الضيق المرعب .

إنه لا يمكن أن ينساهم أو أن يتركهم دون تعزية ومعونة .

فلنسرع نحو ذراعيه لأنهما قويتان وستحملانا كل الطريق ..

حين نكون فى ألم وبؤس شديد ، يمكننا حينذاك أن نقول للرب : (يا أبى إننى أثق بك) .

فهذه الصلاة تحمل قوة ، وتأتينا بالعون ، لأنه بحسب إيماننا سيُعطى لنا .

فإما أن الله يمنع عنا تلك الظروف أو إننا نختبر حضور محبته بكيفية عجيبة ، تجعلنا لا نحس بالرعب المحيط بنا .

علينا أن نركز ثقتنا فى الرب .

إن محبة الرب تتدفق على أولاده ، ولاسيما حينما يجتازون فى الألم والاضطهاد لأجل المسيح .

إنه يسكب عليهم حب قلبه وقت الألم والحزن ، ليحول الجحيم إلى سماء .

فى أيام (أستير) لم يكن أحد يجسر على دخول القصر الملكى لابساً المسوح ..

هذا هو أحد أخطاء الملوك ، فإنهم يرفضون الاعتراف بأحزان وآلام الشعب ، بينما هى تولد التذمر ، ثم التمرد والثورة .

إنهم يصرون على مراقبة كل ما تكتبه الصحف ، رقابة دقيقة ، وحذف كل إشارة فيها إلى نواحى الآلام فى الحياة .

لا يسمحون بوجود ورقة ذابلة فى حدائقهم ، أو عصفور ميت فى الغابة ، أو أبرص فى الشارع الذى يجوزونه بمركباتهم ..
بل يأمرون : (انشدوا الأغنيات ، اعزفوا الموسيقى ، أحيوا الحفلات) .
هذا ما يطلبونه ولكنهم سرعان ما تنهار عظمتهم، وتندك عروشهم.

لم يكن هذا الحال مع الرب يسوع ، ملك الملوك ورب الأرباب ، فإنه حينما يجد أبرص واحد أو أكثر يتحنن عليهم ، كان يتحرك قلبه عطفاً على كل آلام البشرية .

إن الرب يسوع يئن لآلام وضيقات أولاده ، ويشاركهم آلامهم مثلما يشاركونه آلامه ..
لذلك لما ظهر لشاول الطرسوسى مضطهد المسيحيين ، لم يقل له : (لماذا تضطهد المسيحيين ؟)

بل قال له : **" لماذا تضطهدنى ؟ "** (أع ٩ : ٤)
هكذا يُسمع الاضطهاد لدى المسيح فى السماء ، وكأنه واقع عليه هو .

تأمل أيها القارئ الحبيب .. كيف أن المسيح نفسه وهو فى السماء يصيبه نفس الاضطهاد الذى يقع علينا .

إننا إن كنا شركاء المسيح فى آلامه ، فالمسيح نفسه شريك معنا فى آلامنا واضطهاداتنا ، يصيبه ما يصيبنا من ضيقات .

إننا كمسيحيين نؤمن أن الله ليس متفرجاً علينا ، إنه متشارك تماماً معنا فى أمورنا ، وهو رفيقنا فى معاناة غربة الحياة ، حتى أنه نزل إلى عمق أعماق جحيم البشرية ، وإلى هاوية الإنسان السحيقة ، وحمل كإنسان كل ثقل وحزن وألم ، حتى الموت ، موت الصليب .

نزل إلى قاع الهاوية حتى يرفعنا إلى مرتفعات السماء . لم يعد الله يقف فوقنا ، بل يقف إلى جوارنا وسط صراعات مُعترك الحياة .

إلى جميع الذين تترنح عقولهم فى الأحزان ، وإلى جميع الذين قدمت لهم الحياة أسوأ ما يمكن أن تقدمه ، وإلى جميع المجربين بالمحن والتجارب ، يأتى يسوع لكل هؤلاء ويُريهم يديه المثقوبتين ، وجنبه المطعون ، وجراحات حبه النازفة ، ليعرفوا أنه يشاركهم آلامهم ومعاناتهم .

إن الله لم يعدنا بسُحب زرقاء دائماً تلبد سماء حياتنا أو ممرات متشابكة الأزهار طوال أيام عمرنا .
الله لم يعدنا بشمس دون أمطار أو فرح دون حزن أو سلام دون ألم .
لكن الله قد وعدنا بأن يسندنا ويعطينا القوة طوال اليوم والراحة والعزاء أثناء الألم ، والنور للطريق ، والنعمة للتجارب ، والعون من الأعالى ، والرقة والحنان والعطف المستمرين ، والمحبة المتواصلة والدائمة التى لا تفتر .

إن آلام الرب يسوع ماتزال مستمرة ، فحينما يقاسى أحباؤه المعاناة من الخطاة ، يضطهدون ويطردون ويحاكمون ، ويهانون ، ويقتلون ، يقاسى هو أيضاً ويتألم .. ذلك لأنه حى فيهم .

يا ماسح الدموع ..
يا مضمد الجراح ..
يا حصن الملتجئين إليه ..
ماذا نرد لك من أجل
كل إحساناتك ؟

٥ ــ كل دمعة

ذهب الملك (ادوارد السابع) ملك انجلترا ، عندما كان ولياً للعهد لزيارة ملجأ من ملاجئ مشوهى الحرب العالمية الأولى ، وكان به خمسون رجلاً .

فأرته رئيسة الملجأ أربعين منهم فسألها : [أين العشرة الباقين ؟]

أجابته : [إنه غير مسموح بزيارتهم ، لأنهم مشوهون للغاية ، وسموك تتأذى من منظرهم] .

ولكنه صمم أن يراهم ، أما هى فأرته تسعة من العشرة ، وإذا بكل واحد منهم قد فقد المظاهر البشرية ..

ولكنه لم يسكت عند هذا الحد ، بل سألها : [أين الأخير ؟]

فأجابته فى شئ من الاضطراب : [أرجو من سموك المعذرة ، واسمح بأن لا تراه] .

ولكنه صمم أن يراه أيضاً .

فأخذته إليه ، وإذ به يرى كتلة من اللحم البشرى بلا يدين ، ولا رجلين ، ويصعب على الإنسان وصفها .

فانفعل الأمير بالعاطفة ، وانحنى على الرجل ، وطبع عليه قبلة قائلاً له : [هاك يا أخى قبلة المحبة والشكر والتقدير ، فأنت بما جرى لك ، قد أنقذت شرف التاج البريطانى] .

وها هى النفس البشرية تناجى مسيحها ملك ملوك الأرض قائلة : **" ليقبلنى بقبلات فمه "** (نش ١ : ٢) .

إنه وعد الرب أن يمسح كل دمعة من عيون أولاده المتألمين فى الأرض . ويدخلهم إلى النعيم الأبدى (رؤ ٢١ : ٤) ، فلا شك أن التعزية ستزداد بازدياد ما يكون هناك من دموع تُمسح .

الأبدية هى النهاية السعيدة التى تتصاغر أمامها كل آلام الزمان الحاضر .

بالتطلع دوماً إلى الساعة الأخيرة ، حيث الاحتفال بنوال إكليل البر تمجيداً لحياة شاركت المسيح آلامه وحفظت كلمته ، وذاقت حلاوة عشرته ، تعبُر على النفس رياح الهموم والأحزان والتجارب دون أن تحطم شيئاً من رصيد الفرح المستقر فى الأعماق ، ولا تلمس غير سطح الأمواج التى قد تعلو وتهبط ، ولكن الفرح والسلام هناك لا يطالهما شئ .

المقابلة بين خفة ضيقتنا الوقتية وثقل المجد الأبدى (٢ كو ٤ : ١٧) تُجرِّد التجارب من أشواكها الحادة ، وتجعل من دموعنا مجرد متنفس طبيعى لضغوط التجارب ، ولكنها مع هذا لن تكون منسية قدام الله .

انتظارنا للأبدية السعيدة يحوِّل آلامنا وأسقامنا وأحزاننا من أدوات لتكديرنا وسحقنا – كما هى للبعيدين عن الله – لتكون رصيداً لحسابنا نتمجد به فى اليوم الأخير .

وهكذا لا تعطل استمرار فرحنا وسلامنا ونحن هنا على الأرض .

يقين الحياة الأبدية هو ما ساند كل شهيد فى ساعته الأخيرة ، ووهبه أن ينتصر على رعب الموت المتشح بالدم .

تشجعوا ها حبيبكم – الرب يسوع – آتٍ ليجمعكم فى حضنه ، ويمسح عنكم كل جراحات الطريق .

خطوات قليلة باقية ، عليها طابع أقدام الرب فى طريق الآلام ، سوف نعبرها لنبلغ النهاية حيث نواجه الحقيقة الغامضة ونعرف سر الطريق، ونكشف أسرار الحروب التى خُضناها برحمة قائد خلاصنا، وحينئذ يمتلئ فمنا فرحاً ولساننا تهليلاً ،وننسى مآسى الزمان الحاضر .

إن الله معنا فى وسط آلامنا ، هو معنا بالحقيقة يكمل خطته بنا ويقيس أمانتنا فى شقائنا ليُقرر فى الزمان المُعَّين نصيبنا عنده ، ويفتخر بآلامنا التى جُزناها إن كنا لا نكل .

إنه معنا فى وسط الآلام وفى يده إكليل المجازاة ، وسوف يستقبلنا فى السماء ، ويمسح كل دمعة من عيوننا ، ويطوِّقنا بحبه وحنانه ، لنكون أعز خلائق الله وأبناء حبه ، مدللين كرضيع على صدر أمه ، فيعوضنا عن قسوة هذا الدهر ، ويجزل لنا من لطفه ، فننسى قسوة الزمان ومحن الأيام .

عزيــزى

قد يخطـر علـى بالـك هـذا السـؤال : [مـا موقـف الله مـن دمـوعى الجارحة التى تركت نزيفاً فى القلب وجرحاً لا يُنسى ؟]

وبينما أنت تسأل هذا السؤال ، فإذ بيد الله تمسح كل دمعة تساقطت من عينيك وتلغى كل أثر تركته أحزان هذا الدهر فى كيانك الضعيف .

وكأنمـا حـوادث الـدنيا وهمهـا بعـد أن خطـت فـى كيانـك ووجهـك خطوطها القاسية ، علامـة علـى انغلاب الإنسـان بسطوة الألم ، إذ بنـور الله يحيط بهذه الخطوط إحاطة خفية ، فيحول خطوط الألم إلى أشعة نـور وبهجـة سـرية لا يراهـا إلا القلـب والعـين المفتوحـة ، ومـن خـلال هـذه الخطوط المضيئة يُرى مجد الله ورحمته وجهاً لوجه .

إنهـا كذبـة كبيـرة مُلفقـة مـا يسميه النـاس آلام وأحـزان وهموم ، إنهـا انعكاسـات وهميـة متشـابكة أمـام العين الغشيمة والقلـب السـاذج ، تتكـون أمامـه كتـل مـن الضـباب والعتمـة ، فيختفـى وجـه الحقيقـة والله وعظمـة الإنسـان ، وعظمـة مواهبـه التـى تكدسـت فـى كيانـه ، فيتركهـا مخفيـة فـى أعماقه ، وينشغل بهذه العتمة المحيطة .

مزيـد مـن الهـدوء والشـجاعة ، مزيـد مـن الإقـدام بثقـة الله وإيمانـه ، ويطأ الإنسان العتمة ، حينما يرتفع فوق الحوادث ويطل عليها من فوق الزمن .

إن السحابة تكون سوداء قبل
أن تنقشع ، وتلقى ظلالاً
قاتمة قبل أن تسكب طوفان

٦ ــ التجربــة العُظمــى

لقد سمح الله أن يجوز (إبراهيم) تجربة عظيمة ومحنة شديدة بطلبه منه ذبح ابنه الوحيد الذى يحبه (اسحق) .

إن الإيمان هو الذى يعبر عن مقدار عمق حياتنا الروحية الداخلية . وهو لا يمكن أن يصل إلى أسمى مراتبه طالما كان فى القلب أى انحراف أو أى ميل شرير أو محبة غير مقدسة .

لهذا يجب استئصال هذه الأدران ، أو مرور المؤمن فى بوتقة الآلام والأحزان ، لكى إذا تحرر القلب منها يصل إلى الإيمان الكامل بالله الذى هو أبهى تاج للإنسان .

وقبل أن يدخل (إبراهيم) فى هذه التجربة القاسية ، أعده الرب لها بتخليصه من بعض الضعفات التى لصقت به والتى كانت تعرقل إيمانه وتشل حركته فى ساعة التجربة . ففضح الرب وأدان إحدى هذه الضعفات لإبراهيم بكذبه وقوله عن سارة أنها أخته ولم يقل أنها زوجته (تك ٢٠ : ٢ – ١٣) ، وسمح لأبيمالك الملك الوثنى أن يوبخه على فعلته هذه (تك ٢٠ : ٩) .

وكان وجود (هاجر واسماعيل) معطلاً لنمو حياة إبراهيم وإيمانه . فقد كان قلبه متعلقاً بتلك الفتاة التى أنجبت له ابنه البكر ، لقد كان لديه ارتياح أن ينجب من هاجر نسلاً ، فهذا التدبير حقق له غاية محبوبة ولو أن الله لم يكن راضياً عنه .

إنه لو دُعِى ليقدم (اسحق) ذبيحة ، لوجد ذلك أمراً هيناً ، إذ يستطيع أن يستعيض عنه باسماعيل . كوارث له ..
لذلك كان لابد من إبعاد هاجر واسماعيل عنه .

إن الكلمات المدونة فى الكتاب المقدس فى هذا الشأن عن تاريخ ذلك القلب المحطم ، كأن أصناماً محبوبة قد انتزعت عنه الواحد بعد الآخر ، وتُرك مجرداً من كل شئ ومن كل شخص ، لكى يعتمد على قدرة الله .

قد يتلهف الكثيرون ممن يقرأون هذه السطور للحصول على

الإيمان القوى الذى كان لإبراهيم .
الإيمان الذى لا يتطرق إليه الشك والريبة .
الإيمان الذى يفتح ويغلق السماء .
الإيمان الذى يستطيع كل شئ .

ولكن هل أنت مستعد أن تدفع النفقة ؟
نفقة الآلام ..
نفقة نزع كل شئ من قلبك يعطل الإيمان .
نفقة تحطيم كل الأصنام المحبوبة ، الواحد بعد الآخر .
نفقة تجريدك من كل شهواتك المحبوبة التى يتلذذ بها الجسد .

يجب أن لا نجزع من السكين التى ينقى بها الكرام كرمه ، فإن اليد التى تمسكها هى يد ذاك الذى يحبنا إلى المنتهى .
إنه إنما قد أمسك بهذه السكين ، لكى يملأ قلوبنا شكراً ويملأ السماء تسبيحاً أبدياً .

كان لابد من تنقية (إبراهيم) من كل الأدران التى كانت تعوق كمال إيمانه .
" فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً فى شيخوخته . فى الوقت الذى تكلم الله عنه " (تك ٢١ : ٢) .

وامتلأ بيت إبراهيم فرحاً وسعادة ، فنسى هو وزوجته ثقل تلك الأيام الطويلة فى الانتظار .

فتشجع يا مَن تنتظر مَن لا يُخيب لك رجاء ، ومَن لا يتأخر عن الموعد المحدد دقيقة واحدة . وثق بأن **" حزنكم يتحول إلى فرح "** (يو ١٦ : ٢٠) .
تحول حزن سارة إلى ضحك ، ثم انفتحت شفتاها ، فنطقت بقول مأثور ، أقرب إلى الشعر المنظوم ، فقالت : **" قد صنع إلىَّ الله ضحكاً . كل مَن يسمع يضحك لى "** (تك ٢١ : ٦) .

وبعد ذلك بزمن طويل ، تهللت واحدة من بناتها بتلك الأغنية الرائعة الجميلة ، **" فقالت مريم : تعظم نفسى الرب وتبتهج روحى بالله مخلصى .. لأن القدير صنع بى عظائم واسمه قدوس "** (لو ١ : ٤٦ – ٤٩) .

سعيدة أنتِ أيتها النفس ، عندما يملأ الله قلبكِ سعادة وشفتيكِ ضحكاً . عندئذ يزول الألم ، ويتبدد الحزن والأنين إلى الأبد ، كما يتبدد الظلام أمام نور الفجر .

بعد ولادة (اسحق) واضطهاد إسماعيل له (غل ٤ : ٢٩) كان لابد من إبعاد هاجر وابنها اسماعيل عن (إبراهيم) (تك ٢١ : ١٢) .

وهوذا ثقل آخر يرفعه الله عن كاهل (إبراهيم) خليله ، وخطوة أخرى تعده لإنتصار إيمانه إنتصاراً باهراً .
الأمر الذى كان يهيأ له كل حياته ، والذى كان قريباً على الأبواب ، وهو تقديم (اسحق) ذبيحة .

قد تزهو بعض الزهور بعد أن تظل فى النمو قرناً كاملاً ، وسوف يعتقد الكرام الإلهى أن سنوات التعب ، والعناية الممتزجة بالصبر ، والمحبة ، قد عُوِضَت عندما يرى أن النفس التى تعب فى العناية بها قد أزهرت ، ولو فى حادثة واحدة كحادثة (ذبح اسحق) .

إن حوادث كهذه تبذر الأعمال النبيلة وأعمال البطولة لكل المستقبل طالما كان البشر فى هذه الحياة ، فلا يمكن إلا أن يزدادوا إعجاباً بهذه الحادثة التاريخية الفريدة ، التى لا تفوقها حادثة أخرى فى كل تاريخ البشرية .

إننا يجربنا الشيطان لكى يظهر كل ما فى قلوبنا من شر .
أما الله فيجربنا لكى يظهر كل ما فيها من خير .

عندما تحل بالمؤمن التجارب الصعبة التى يدعى ليجوزها ، تتلاشى منه بقايا الشر التى قد تكون عالقة به ، والتى تعطل نموه وتقدمه فى الحياة الروحية .
وفى نفس الوقت تخرج إلى عالم الظهور تلك المواهب الكامنة ، فتنمو وتزدهر حتى تأخذ مكانتها اللائقة ، الأمر الذى ما كان ممكناً أن يتم بغير تلك التجارب .

إن حوادث الحياة اليومية ، وكذلك الأزمات النادرة ، يقصد بها الله أن تقدم لنا الفرصة لتمرين مواهبنا الروحية وتقويتها .. فطوبى للمستعدين لاقتبال تلك التجارب فى شكر .

التجارب هى باعث الثقة فى الله والاتكال الكلى على نعمته .

لقد داهمت (ابراهيم) تلك التجربة التى كانت أعظم تجربة حلت به فى الحياة ، حلت به هذه التجربة العظيمة دون إنذار سابق .

لقد انصبت التجربة على رأس (اسحق) ابنه الوحيد الذى يحبه ، ولم يكن ممكناً أن يُجَرب فى شئ فى حياته أثمن من وارث الموعد ، ابن شيخوخته موضوع مسرته وبهجة حياته ، وضحكه .

لقد كان امتحاناً شديداً لإيمان (ابراهيم) ..

إن قمة جبل المريا هى التى عينها الرب لكى تكون مسرحاً تتم عليها هذه الرواية التاريخية الخالدة. والتى ستبرهن على أن (ابراهيم) قد أحب الله أكثر من أى شئ .

يخبرنا التقليد أن هذا الجبل هو بعينه نفس المكان الذى بنى عليه سليمان الهيكل فيما بعد .. وهناك ملاءمة عجيبة فى هذه الحقيقة .

إن طاعة (ابراهيم) تمت فى ذلك المكان ، الذى كانت ستسفك فيه دماء الذبائح ، انتظاراً لمجئ الذبيحة الفريدة العظمى التى لحمل الله (الرب يسوع) التى كانت تشير إليها ذبيحة (اسحق) . ويؤكد البعض أن الرب يسوع صُلِبَ فى ذات الموقع الذى فيه قُدِمَ (اسحق) كمحرقة .

إن هذا العمل الجليل الذى قام به(ابراهيم) سيبقى إلى أبد الدهور ، برهاناً قوياً على إمكانية ، وكيفية تعلق الإيمان بمواعيد الله ، بقوة عظيمة .

عندما تنال وعداً أيها الأخ الحبيب ، تعلق به كما يتعلق الغريق بعوامة النجاة ، فإن الله أمين لكلمته ، وصادق فى كل مواعيده .

لقد أخذ ابراهيم الوعد من الله بإعطائه نسل .. من اسحق – كرمل البحر ونجوم السماء .. فكيف يتم ذلك بذبحه لإسحق ؟!

لقد مد يده ليذبح (اسحق) والفكر الوحيد الذى ملأ قلبه هو أن **" الله قادر على الإقامة من الأموات أيضاً "** (عب ١١ : ١٩) .

تحمل اسحق مشقة رحلة طويلة مع أبيه ، سيراً على الأقدام حاملاً الحطب وهو صاعد إلى الجبل ، وقد أحنى قوة شبابه تحت عبء الحطب بسرور ، كما حمل من هو أعظم منه صليبه فى الطريق إلى رابية الجلجثة .

وبكل بساطة سأل (اسحق) هذا السؤال ، الذى لابد أن يكون قد خلع قلب ابراهيم : **" يا أبى .. هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة "** (تك ٢٢ : ٧) .

كانت هذه الكلمات سهماً نافذاً ، وصل إلى قلب (ابراهيم) المثقل بالهموم والأحزان . وبشعاع من نور النبوة ، مختلط بإيمان وطيد فى ذلك الذى كان يكابد المحنة من أجله ..

أجاب ابراهيم ابنه المحبوب :

" الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابنى " (تك ٢٢ : ٨)

ثـم طرقـت أذنـى (ابـراهيم) تلـك الكلمـات التـى تبشـره بالنجـاة والخلاص (تك ٢٢ : ١٢) .

على قمة الإيمان ، وقف ابراهيم وتطلع إلى وادى الدهور ، فرأى يوم المسيح **" فرأى وفرح "** (يو ٨ : ٥٦) .

وبنور جديد فى قلبه ، والسرور يطفح على وجهه (رجع إبراهيم إلى غلاميه) مع ابنه اسحق ..

وكان فى الطريق يتحدث كثيراً إلى ابنه عن الرؤيا المجيدة التى ملأت نفسه الكريمة .

أما تلك الرؤيا المجيدة فقد أضاءت كل حياته ، كما تضئ حياتنا

الألـم هو أعظم وسيلـة للسمو

٧ – تركونـى وحـدى

إنها كلمة تستدر الدمع من عين كل محب ، تلك التى قالها الرب يسوع لتلاميذه : " نفسى حزينة جداً حتى الموت " (مت ٢٦ : ٣٨) .

ما أعظم الفارق بين آدم الأول فى جنة عدن وآدم الثانى المسيح فى بستان جثسيمانى .. ما أعظم الفرق بين هذين البستانين :

بستان الراحة والسرور .. وبستان الدموع والبكاء .
بستان يستريح فيه المخلوق .. وبستان يتعب فيه الخالق .
بستان بدأ فيه شقاء الإنسانية .. وبستان خرجت منه ينابيع خلاص البشرية .
بستان فيه سقطنا .. وبستان فيه قمنا .
بستان فيه دين الإنسان .. وبستان فيه وفىّ الدين عنه .

قال الرب لتلاميذه : **" امكثوا ههنا واسهروا معى "** (مت ٢٦ :٣٨) .
بعد أن عرفهم بأنه نفسه حزينة جداً حتى الموت .
يا للأسف .. لقد تخلوا عنه تلاميذه وتركوه وحده يكابد الحزن .

إن الخليقة الساقطة التى أتى الرب لإنهاضها ، نامت وتركته وحده يصارع لإنقاذها من سقطتها .

لقد أنبأهم بآلامه وبأن نفسه حزينة جداً حتى الموت ، وطلب منهم أن يسهروا معه لتعزيته ، ولكنهم أهملوا القيام بما ينتظر أن يقوم به الصديق لصديقه فى وقت الشدة .. حتى صار يعاتبهم كما يعاتب الحبيب حبيبه بهذا العتاب المملوء حباً قائلاً لهم : **" أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معى ساعة واحدة "** (مت ٢٦ : ٤٠) .

لقد سبق وتنبأ الأنبياء بآلام المسيح النفسية فقال داود النبى : **" يمخض قلبى فى داخلى وأهوال الموت سقطت علىَّ "** (مز ٥٥ : ٤) .

ويقول المرنم : " اكتنفتنى حبال الموت أصابتنى شدائد الهاوية ، كابدت ضيقاً وحزناً " (مز ١١٦ : ٣) .

أوثقوه ليحلنا من رباطات خطايانا .

مضوا به وحده فقد تركه الجميع . ووقف فى المحاكمة وحده . وداس المعصرة وحده .

وبعد ذلك مضوا بيسوع إلى (حنان) حمى قيافا (يو ١٨ : ٢٨) ، وحُبِسَ فى بيت (حنان) ، حبسوا ذلك **" الذى يفتح ولا أحد يغلق ، ويغلق ولا أحد يفتح "** (رؤ ٣ : ٧) .

ثم أرسله (حنان) إلى (قيافا) وهناك سأله عن تعليمه ، وبينما كان يسوع يجيب عليه لطمه واحد من الخدام (يو ١٨ : ٢٢) .

يا لها من يد قاسية .. يا له من قلب وحشى .

كيف تجاسرت أيها الشقى أن ترفع يدك على ذلك الوجه الملوكى الذى لا تستطيع الملائكة النظر إليه ؟

كيف تجرأت على لطم الإله الذى صورك فى بطن أمك ؟

ارتعدى أيتها السموات ، وتنهدى أيتها الأرض ، وأظلمى أيتها الشمس على هذه الجسارة الغريبة . واحكمى بين خالقك وبين خليقته .

فها قد أهانه ليس أكبر القضاة ، بل أحقر الأعوان .

لقد ارتضى ابن الله أن يكون أقل من عبد ليرسل المنسحقين فى الحرية (لو ٤ : ١٨) .

لقد لطموك على وجهك ، وبصقوا على ذلك الوجه الذى بكى حزناً على خطاياهم .

وضربوك على رأسك التى حملت أثقال خطاياهم .

ثم أخذوا يسوع إلى بيلاطس ليحاكم أمامه .

أدانوا ديان العالم وهو صامت .. اتضع الحق ، وارتفع الباطل .

ولما عرف بيلاطس أن يسوع من الجليل ، أرسله إلى هيرودس ، فصار بيلاطس وهيرودس صديقين من تلك الساعة ، لأنهما كانا من قبل متخاصمين (لو ٢٣ : ١٢) .

نعم .. أينما كان يسوع فهو رسول السلام والمصالحة . لقد جئ به إلى الحكام المتخاصمين ، فألقى السلام بينهم .

" عاملاً الصلح بدم صليبه " (كو ١ : ٢٠)

أما هيرودس فاستهزأ به ، وألبسه لباساً لامعاً ورده إلى بيلاطس .

أيها المخلص المبارك .. أين أنت الآن ؟
أيُحاكم الخالق من المخلوق ، والجابل من الجبلة ؟

أسرعوا أيها المجروحون إلى يسوع الشافى ومضمد جراحات البشرية .

أسرعوا يا مَن جُرحتم بسهام الخطية إلى مَن قبل تلك السهام فى جسده المبارك .

فهو **" مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا "** (إش ٥٣ : ٥) .

وهو حمل أحزاننا وتحمل أوجاعنا (إش ٥٣ : ٤) .

" وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه "(مت ٢٧ : ٢٩) .

فإذا سألت الآن : (أين شوكتك يا موت ؟)
ستكون الإجابة من فوق الصليب وهى : (فى رأس ابن الله) .

لأنه قد قلع شوكة الموت وغرسها فى رأسه فلم يعد للموت مهابة .

قولى لى أيتها الرأس الطاهرة .
كم تلمتِ ، وكم كان وجعكِ عندما انغرست فيكِ تلك الأشواك ؟
كيف أراكَ مكللاً بالشوك يا مَن تكلل السنة بجودكَ ؟
كيف أرى هذه الرأس المرتفعة فوق جميع الرؤوس والمتعالية فوق

لم يكن حمل الصليب أثقل عليكَ من حمل خطايانا .

تأملى أيتها الشمس .. وتأملى أيتها الأشعة الصافية المنبعثة منها فى منظر لم تشاهديه منذ بسطك الإله على صفحات هذا الكون . ومنذ ألقيت رداءك على أكتاف هذا الوادى .

هيا .. يا جميع بنى البشر لنرى أى كرسى أجلسته المحبة لأجلنا .
وضع الصليب على كتفى ملك المخلوقات كلها .
خالق البرايا كلها يحمل على كتفيه خشبة ذلنا .
ما هذا المنظر العجيب ؟
ما هذه الطريق المؤدية إلى الموت التى أنت سائر فيها يا إلهى ؟
ما هذه الدماء التى لطخت الأرض من موضع حملك الصليب إلى موضع صلبك فوق رابية الجلجثة ؟

انظرى يا نفسى ..
" إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا ، فماذا يكون باليابس " (لو ٢٣ : ٣١) .

إن كانت الخطية جلبت للبرئ القدوس كل هذا الويل ، فماذا يكون أمركِ أيتها النفس الشقية ؟

ماذا يكون أمركِ أيتها العود اليابس المُعد لحريق النار .

فإذا كنت ترانى يارب عوداً يابساً ، فلينى بزيت نعمتك ، ورطبنى بدمك الزكى .

" احتمل الصليب مستهيناً بالخزى " (عب ١٢ : ٣)

مَن هذا الذى يعانق خشبة الصليب ؟
ما الذى جعلك أيها المصلوب لا تخاف الموت الذى يخافه جميع البشر ؟

ولا يزال حتى الان يلعب الناس لعبة الشطرنج ، ويضعون على الملك فوق رأسه صليب .

يحسبه الغير عاراً ، أما نحن فنحسبه شرفاً ..
يحسبونه ضعفاً ، أما نحن فنحسبه قوة .
" فإن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة ، وأما عندنا نحن المخلصين فهى قوة الله " (١ كو ١ : ١٨) .

لقد صار الصليب عرشاً لملك المجد .
وتعظم الصليب ، لأن من فوقه انبعثت أشعة شمس البر .

ما أمجدك أيها الصليب ،وما أبهى سمو الذى تقدست بصعوده عليك .
" فعروه ، وألبسوه رداءً قرمزياً " (مت ٢٧ : ٢٨) .

عروك يا مَن تكسو السماء بحلة من الأنوار والأرض برداء من الأزهار .
عروك يا مَن تستر عُرى البشرية .
لقد سمروا اليدين الطاهرتين .. يدان لم يمتدا من قبل إلا لشفاء المرضى وإشباع الجياع ، وإقامة الموتى .

" وجاءوا به إلى موضع جلجثة ، **الذى تفسيره موضع** جمجمة **"** (مر ١٥ : ٢٢) .
(الجلجثة) كلمة عبرانية معناها (جمجمة) .

قال العلامة أوريجانوس :[ذلك لأن جسد أبينا آدم كان مدفوناً فيه، فقام الابن الوحيد من فوق الجد الأول ، ليعيد إليه الحياة الأبدية] .
وقال القديس كيرلس : [إن اسم جمجمة رمز للمسيح الذى هو رأس الكنيسة] .

وقيل أنها دعيت جمجمة ،(لأنها) كانت موضع إعدام المجرمين ، حيث تُرمى رؤوسهم هناك ، فأراد المخلص أن يعيد الحياة الأبدية فى بقعة الموت .

قال النبى : **" هلم نصعد إلى جبل الرب "** (مى ٤ : ٢) .
هلم نصعد إلى المكان الذى كفر فيه الرب عن خطايانا .

تعالوا أيها الأحباء لتشاهدوا ينبوع بركم .
تعالوا أيها النساء إلى مصدر الطهارة والقداسة .
تعالوا جميعاً يا جميع المسيحيين لتروا المنبر الذى أُلقِىَ من فوقه أسمى التعاليم ، وسُفِكَت فوقه أغلى الدماء .

ما هذا أيها الفادى .
ما الذى جعلك ترضى بذلك ؟
أيهان العظيم ؟ أيذل الممجد ؟ أيوضع المرتفع ؟

يا لعظم حبك .. نعم هو حبك العظيم الذى جعلك تقبل احتمال كل ذلك العذاب من أجلى .

أيدان الحاكم العادل من أحقر العبيد ؟

آه يا مخلصى لم تقيدك تلك المسامير بالصليب ، ولكن محبتك العظيمة والفائقة الوصف هى التى قيدتك بالصليب .
لتشاهد الشمس جيداً ، وليرى القمر ، ولتتجه كل قوى الطبيعة نحو جبل الجلجثة لترى رب الطبيعة معلق على الصليب " كرجل أوجاع " (إش ٥٣ : ٣) .

لقد تألم كثير من البشر ، ولكن مَن من البشر قيل عنه أنه (رجل أوجاع) .

يسوع وحده الذى يستطيع أن يقول : " **أما إليكم يا جميع عابرى الطريق .** تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزنى " (مراثى ١ : ١٢) .

لقد داس الرب يسوع المعصرة وحده ولم يجد مَن يسانده " **انتظرت رقة فلم تكن ، ومعزين فلم أجد** " (مز ٦٩ : ٢٠) .

أى ملك خانه عبيده وأسلموه لأعدائه وأنزلوه من على كرسيه ؟
أى ملك عروه عبيده من ثيابه الملوكية وألبسوه ثياباً بالية وتوجوه بإكليل من شوك على رأسه بدلاً من تاج الملك ؟
أى ملك احتقروه عبيده وأمسكوه قصبة فى يمينه وأخذوا يسجدون له مستهزئين ، ويبصقون فى وجهه محتقرين ويضربونه على رأسه مهينين ؟

احزنى أيتها السموات على ما يحدث لصانعكِ وباريكِ ، وانتحب أيها القمر ، واندبى أيتها النجوم لأن نور العالم قد سُمر على خشبة .

أين أنتم أيها العميان الذين فتح يسوع عيونكم ؟
أين أنتم أيها الصُم الذين شفى أسماعكم ؟

أين أنتم أيها الخرُس الذين أنطق ألسنتكم ؟
أين أنتم أيها الأموات الذين أقامكم ؟

هلموا جميعاً لتنوحوا عليه وهو معلق فوق الخشبة كأثيم .

إن البعض يقولون أن أعظم فترة من حياة المسيح ظهر فيها مجده هى وقت تجليه على الجبل .

وآخرون يقولون وقت مشيه على الماء .

وهناك مَن يقولون وقت إقامة الموتى ..

تأملوا فيما صار إليه إلهكم لأجلكم .. لقد افترش الصليب وتوسد بالشوك والتحف بالعُرى واتخذ قضيب ملكه مسمار ، وشرابه خلاً ومراً .

أعطنى يارب أن أعتبر آلامى لأجلك هى قوتى ، وافتقارى لأجلك هو غناى ، والموت لأجلك هو حياتى .
أعطنى أن أعتبر عذابك كنزى .. وإكليلك الشوكى مجدى .

وأوجاعك تنعمى ، ومرارتك حلاوتى .
وجراحاتك صحتى ، ودمك حياتى .
ومحبتك سرورى وفخرى وشكرى .
" **قد دست المعصرة** وحدى ، **ومن الشعوب** لم يكن معى أحد " (إش ٦٣ : ٣) .

إننا لم نجد فى تاريخ الإنسانية أن إنساناً وقف ضده الناس على اختلاف رتبهم ودرجاتهم ..
أما يسوع فهو الوحيد الذى وقف ضده الجميع دون أن يجد أقل حنو من أحد .

قام ضده الوثنيون واليهود والرومان والعامة والأعيان والحكماء والكهنة والعلمانيون والقضاة والجنود والشيوخ والأحداث والخبثاء والبسطاء كقول المزمور : " **أحاطت بى ثيران كثيرة أقوياء باشان اكتنفتنى . فغروا علىَّ أفواههم كأسد مفترس مزمجر .. جماعة من**

أين الحزانى الذين عزاهم ؟

حتى تلاميذه أين هم فى وقت القبض على يسوع ؟

يقول الوحى الإلهى : **" حينئذ** تركه **التلاميذ كلهم وهربوا "** (مت ٢٦ : ٥٦) .

وتم القول الذى قاله لهم الرب يسوع : **" هوذا تأتى ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته** وتتركونى وحدى **"** (يو ١٦ : ٣٢) .

إنه إذا مرض أحد يحيط بسريره أحباؤه وأقاربه ليقدموا له الدواء والغذاء وكلمات التعزية .

أما يسوع فلم يجد فى آلامه مَن يكلمه كلمة واحدة يعزيه فيها ويشجعه بها على احتمال آلام الصليب .

لقد كان لسان حال يسوع يقول : **" نظرت ولم يكن معين ، وتحيرت إذ لم يكن عاضد "** (إش ٦٣ : ٥) .

أخـى القـارئ

هل تعرضت لهجر أحبائك وأصدقائك فى وقت الشدة والضيق ؟
هل تشعر بالحزن العميق فى داخلك من حدوث ذلك ؟
هل وقفت وحدك وسط التجربة بلا سند من أحد ؟

لا تنزعج ولا تضطرب . فقط ارفع قلبك إلى يسوع الذى هجره أحباؤه وتركوه وحده بلا سند وبلا تعزية .

ارفع قلبك إليه فهو الوحيد القادر أن ينتزع منك وعنك كل تعب واضطراب ، ويمتعك بالراحة والسلام .

صحيح أن الآلام قد تكون مرة على النفس ، والنار تلذع ، والأصدقاء قد يهجروننا ، والأعداء يهددوننا ، وظلال الموت تحجب عنا نور الشمس ، ومع ذلك فمهما كانت شدة الآلام وعنف التجارب المتنوعة ، فيكفينا أن ندرك بأنها تؤدى إلى نتائج مجيدة جداً ، وإنه لا شئ يستطيع أن يفصلنا عن حبيبنا يسوع .

وحياة أبدية لكل مَن يتناول منه .

هو الكرمة ومن عصيره لا زالت تـُقدم الكنيسة دمه جديداً مهراقاً كل يوم على مذابحها علامة دهرية لعهده الجديد لغفران الخطايا الذى أهرقه بإرادته إيفاء لكل خطية .

وكل مَن يؤمن بالصليب ويحمل آلامه يأخذ قوة الدم المسفوك عليه .

هل تقف بجواره ؟

عندما يتألم إنسان أو يتعذب ، فإن أهم شئ يحتاج إليه هو أن يجد شخصاً يقف بجواره ، خصوصاً إذا ما كان على حافة الموت ، إن الحضور الفعلى للأقارب أو الأصدقاء أو أولئك الذين كانوا على مقربة أو اتصال شديد به يُمكن أن ينشئ سنداً قوياً لهذا الإنسان القريب من الموت .. ليس هناك حاجة إلى كلام ، ولكن مجرد الحضور ، مجرد مسك اليد وضمها بتعاطف .

يقول الأب (هنرى نووين) : [إن هؤلاء الذين يمكنهم أن يجلسوا فى صمت مع صديق .. يدركون جيداً أهمية وجودهم ، هؤلاء يجلبون حياة جديدة إلى قلب ميت] .

ويقول الأب (أنتونى م . كونيارس) : [فى كل مرة كنت أتواجد فيها مع أسرة تجرى عملية جراحية لأحد أحبائها ، كنت أُقابل دائماً بالشكر الحار ، وعندما كنت أعترض على هذا الثناء الزائد بقولى إننى لم أفعل شيئاً ، كانوا يقولون لى : [ولكنك كنت معنا ، لا تتصور ماذا يعنى وقوفك بجوارنا أثناء هذه الساعات الحرجة الصعبة ، يكفينا وجودك بجوارنا)] .

" وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية " (يو ١٩ : ٢٥) .

لا مجال للسؤال عن أهمية الوقوف بجانب شخص فى حاجة ، وإشعاره بوجودنا معه ، إن هذا يؤدى إلى نتائج أكثر مما نتوقع .

إن المريمات بقينَ مع يسوع عندما كان محتاجاً لوجودهن . إذاً لا مجال هنا للسؤال عن جدوى أو فائدةوقوفنا بجوار الذين يتألمون . إن بقاءنا بجوارهم هو خدمة جليلة تسندهم وتشد من أزرهم .

صديقــى

هل عانيت من آلام الوحدة والانفراد ولم تجد من يشاركك آلامك ؟
هل شعرت فى لحظة ما أنك وحيداً منفرداً ومتروكاً من الجميع ؟

تذكر دائماً أن الرب يسوع قد تألم فى ذلك مجرباً ، وأنك تشاركه فى آلامه لكى تتمجد معه . لقد قيل عنه فى المزمور : **" سهدت وصرت كعصفور** منفرد **على السطح . اليوم كله عيرنى أعدائى "** (مز ١٠٢ : ٧ ،

يا إله كل نعمة ..

أختم ليلة القسوة المظلمة

واجلب فجر الرحمة

٨ ــ ما هذه الجروح

" فيقول له : ما هذه الجروح **فى يديك ؟ فيقول : هى التى جُرِحت بها فى بيت** أحبائى **"** (زك ١٣ : ٦) .

كيف تقسو قلوب الأحباء على حبيبهم ؟

لقد رأى زكريا النبى جروح (المخلص) بعين النبوة فقال :

[ما هذه الجروح فى يديك ؟]

فأجابه يسوع والدموع تسيل من عينيه : (هى التى جُرِحت بها فى بيت أحبائى) .

إن يوليوس قيصر طُعِنَ من (بروتس) صديقه الحميم بخنجر ، فأحزنه جداً نكران (بروتس) للجميل ، فهو الذى رقاه وأعطاه منزلة كبيرة فى مملكته ، وقال له (يوليوس) عبارته المشهورة : (حتى أنت يا بروتس) .

هكذا كان المسيح يزداد حزناً كلما رأى قاتليه وصالبيه هم الذين

أترفعون أصواتكم لهتاف الانتقام وصياح العداوة لمَن أكرمكم ؟
أتهينون المخلص الذى فضلكم على جميع الأمم واختاركم دون جميع شعوب العالم ؟

(هى التى جُرِحت بها فى بيت أحبائى)

قال القديس (يعقوب السروجى) : [انظروا كيف أمسكت الأمة اليهودية مَن أتى لخلاصها ، ووضعته على الصليب ، ووقفت ترقص وتضحك وتزدرى وتهزأ .

تعال يا موسى .. انظر العروس التى أُخرِجَت من مصر . ماذا تعمل بعريسها الطاهر ؟

تعال وانظر الوليمة التى وضعتها أمامه .. أحضرت المر .. مزجت الخل .. استلت الرمح .
عوض المَنَّ أعطت خل .. عوض المياه المرة التى جعلها لها حلوة أعطته مراً ليشرب .
الكرمة المختارة صنعت عنباً رديئاً]

(هى التى جُرِحت بها فى بيت أحبائى)

لقد خيرهم بيلاطس فى مَن يطلقه لهم يسوع الحنون صانع الخيرات أم باراباس اللص القاتل سفاك الدماء .

ولكن .. يا للعجب .. طلبوا الحياة لباراباس المذنب والموت ليسوع البار ..

" إله آبائنا مجد فتاه يسوع الذى أسلمتموه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقه ، **ولكن أنتم أنكرتم** القدوس البار **وطلبتم أن يوهب لكم** رجل قاتل **. ورئيس الحياة قتلتموه "** (أع ٣ : ١٣ – ١٥) .

أى سلام هذا الذى تتحدث عنه يا يهوذا ؟
يا له من لسان مسموم .
" **وقَبَّله** " (مت ٢٦ : ٤٩)
أى قُبلة هذه التى تطبعها على وجه المخلص يا يهوذا ؟
يا لها من شفاة غاشة ..
" أبقُبلة **تسلم ابن الإنسان** " (لو ٢٢ : ٤٨)
القبلة التى هى علامة الحب والمودة تستخدم فى الغدر والخيانة ؟
إنها من أشنع الصور لنكران الجميل .
أهذا ما يستحقه منك يسوع يا يهوذا ؟
أليس هو الذى أطعمك خبزه .. فلماذا ترفع عليه عقبك ؟ (مز ٤١ : ٩) .
أتجعل الجنود يوثقوا ويربطوا اليدين الطاهرتين اللتين غسلتا قدميك؟

(هى التى جُرِحت بها فى بيت أحبائى)

وبطرس الرسول .. أنكره وحلف وسب ولعن وكذب وقال أنه لا يعرفه ..
فنظر إليه يسوع نظرة عتاب ..
لماذا تجرحنى يا بطرس وتتبرأ من معرفتى ؟
أليس هذا الذى جعلك يا بطرس تمشى على الماء ؟
أليس هذا الذى انتشلك حينما أوشكت على الغرق ؟
فلماذا تتركه الآن يغوص فى غمرات لجج العذاب وحده ؟

(هى التى جُرِحت بها فى بيت أحبائى)

والتلاميذ كلهم تركوه وهربوا .
أهذا ما يُنتظر منكم أيها الأحباء فى وقت الشدة ؟
أتتركوا حبيبكم يجوز المعصرة وحده ؟
كيف تترك الخراف راعيها وتفر هاربة وهو الذى فى مراع خضر يربضها وإلى مياه الراحة يوردها ؟

(هى التى جُرِحت بها فى بيت أحبائى)

ألا تعلم أيها الحبيب أنك تجرح المسيح فى كل يوم جروحاً دامية بسوء تصرفك وسيرتك الردية وانغماسك فى الشر والرذيلة .

فبحق جراحات المسيح لا تستمر أيها الخاطئ فى خطيتك ولا تبقى فى شرورك .

إن اليد التى ثُقبت مستعدة أن تمسك بيدك وتقودك إلى طريق البر والقداسة .
والرجل التى سُمِرَت مستعدة أن توصلك إلى طريق النجاة .
والعين التى بكت تنظر إليك بشفقة وعطف وحنان .
والأذن التى جُرِحَت بالشتائم تصغى إليك كل حين .

صديقى
هل تعانى من جروح غائرة وآلام عميقة ؟
هل هذه الجروح هى التى جُرِحت بها فى بيت أحبائك ؟

إن الرب قادر أن يداوى جراحات نفسك ويعزف على أوتار قلبك ألحاناً تشع بالمجد والبهاء ، ويضع قدميك على طريق الراحة والتعزية .
إنها لتعزية عظيمة لكل مَن غدر به أحباؤه وأصحابه ، فيسوع قبله قد غدر به أحباؤه وأصحابه .

فلنفرح لأنه جاز طريقاً مملوءاً بالأشواك .. هو طريق مكافأة المحبة بالعداوة .

إنه قادر أن يعزينا إذا اجتزنا هذا الطريق لأنه سلكه قبلنا .
إنهم لم ينبذوه فقط ، بل جرحوه جروحاً بليغة ووقفوا أمامه مسرورين يشمتون به .
" بكلام بُغض أحاطوا بى وقاتلونى بلا سبب " (مز ١٠٩ : ٣)

إنك لو سألت يسوع : (ما هذه الجروح فى يديك ؟)
سيجيبك : (هى التى جُرِحت بها فى بيت أحبائى) .
ولو سألته : (هل أضرتهم فى شئ يا يسوع حتى جرحوك هكذا ؟)
سيجيبك : [لا .. فهم أنفسهم قالوا : **" إنه عمل كل شئ حسناً . جعل الصُم يسمعون ، والخُرس يتكلمون "** (مر ٧ : ٣٧) .

وقد عملت معهم كل أعمال الحنو والرحمة والشفقة والمحبة .
كم مرة أردت أجمعهم كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها (مت ٢٣ : ٣٧) كأب حنون عليهم .. ومع ذلك فعلوا بى ما فعلوا .

" صرت أجنبياً عند إخوتى ، وغريباً عند بنى أمى " (مز ٦٩ : ٨)] .

إنها مأساة قاسية يمر بها ملايين البشر فى الأرض ، فى رحلتهم المجهدة تجاه الأبدية .
إنها مأساة محزنة أن لا يجد الإنسان المتألم على الدرب الطويل مَن يمد له يد المعونة والمساعدة .
وإنها مأساة أشد قسوة أن يُجرح الإنسان فى بيت أحبائه .

ولكن فى هذا الطريق الخالى من الإنسان ، نجد فيه المجروح الشافى مضمد جراح البشرية ومخلصها من أدرانها .

معين المتألمين ورفيق البؤساء .

ضع ثقتك أيها الحبيب .. فى يسوع .. المجروح الشافى .

إن الأبرار والقديسين يقابلون آلاماً من الأشرار مبغضى النور الذى يسطع على ظلمتهم ، والذين يريدون أن يطفئوه إن أمكنهم .

لقد زخرت البشائر بمشاعر كأضواء تبدو متفرقة مع أنها تتجمع معاً فى انسجام لتتسلط بقوة فريدة لإضاءة القبر الفارغ .

لقد بدأت أحزان المخلص مبكرة جداً ، وامتزجت بحياته اليومية صور متعددة من الآلام الضاغطة يتحسسها الذين مالوا إلى عشرته ، فوجدوا فيها ملجأ فريداً فى الأحزان ، وكتاباً صاغته حياته فى أبواب مستوفاة كل نواحى الألم .

وقد زادت قصته روعة تلك الأيدى التى كتبته وهى مقيدة فى سلاسل ، وراجعته عيون أنهكتها الدموع ، بقصد أن تقرأه تلك الجماعات المبعثرة فى زوايا المدن التى أحدقت حولها نيران التجارب فى كل ناحية ، حتى صار إنجيلنا بشكله وموضوعه بذرة زُرِعَت فى هوان ، ورُويت بالدموع ، ونمت وسط لهيب الاضطهاد فى أنحاء الأرض المتفرقة بنفس الظروف الواحدة ، ولكنها انتصرت وقامت واستقامت كباذرها ، وأتت بثمار نحن لون من ألوانها .

ليست هناك أحزان تماثل أحزان الذى صُلِبَ مكللاً بالشوك ، وإن وُجِد مُجَّربون كثيرون بتجارب مُرة ، ولكن ليس كمَن جُرِّب فى أهله وأحبائه وتلاميذه ورؤسائه وحكامه وفى طريقة موته .

وإن كانت طبيعة الألم تزداد بمقدار نبُل الإنسان وحساسيته ، فهل

لججه العميقة . فهل لنا أن نحمل قارورة حب الرب عالياً ، ونقطرها بلسماً على جراح البشرية .

طوبى للعيون التى
تعاين عذاب المسيح
وطوبى للأقدام التى
تخطو دروب الجريح

٩ – جربنــى يـارب

إن اللؤلؤة تنجم عن الشدائد ، فهذه الجوهرة الجميلـة فـى أصلـها حبـة رمل شقت طريقها إلى داخل ثنايا صدفة المحار .

ومن جراء تفاعل المحار معها وتحت ظروفها الصعبة ، تتحول إلـى اللؤلؤة .

وهى توضـح كلمـات (أيـوب) : " **إذا** جربنـى **أخرج** كالذهب " (أى ٢٣ : ١٠) .

من أجل ذلك يطلـب مرنم اسرائيل الحلو مـن الـرب بلجاجـة قـائلاً : " جربنى يارب **وامتحنى** " (مز ٢٦ : ٢) .

إن الله يجربنا لكى يظهر ما فى قلوبنا من خير ، أمـا الشيطان فيجربنـا لكى يظهر ما فى قلوبنا من شر .

لذلك علمنـا الـرب أن نصلـى قـائلين : " **لا تـدخلنا فـى** تجربـة **. لكـن نجنا من الشرير** " (مت ٦ : ١٣) .

عزيــزى

هل لديك الاستعداد أن تـُجَرَب من قبل الرب ؟

هل تقول للرب مع داود النبى : " جربنى يارب وامتحنـى " (مز ٢٦ : ٢) .

إن الرخاء والسراء ما أغنيا العالم قط مثلما أغناه العناء والضراء .

فمن قلب الألم والأسى انبثقت أحلـى الأناشيد وأروع القصـائد وأخلـد القصص ..

ومن بوتقة الأوجاع والدموع طلعت روحيات سامية وحياة مباركة.

وإذ يواجـه المؤمنـون ريـاح الضـراء ، وعواصـف الضـيق ينطلقـون إلى العلاء ، ويكونـون أشبـه بالأشـجار التـى تصـمد فـى وجـه العاصـفة ، لأن جذورها ضـاربة فـى أعمـاق التربـة، كالسنديانة الجبـارة التـى تهـزأ بالأنواء والرياح .

صديقـى

لو امتلأ قلبك بالحب للمسيح لما ظللت تائهـاً حـائراً وسـط المشـاكل ، لأنك لو تقابلت مع المسيح لانتهت مشاكلك .

إن حل المشكلة أن يكون يسوع بنفسه داخل السفينة ..

ليس المهم أن تهدأ الأمواج مـن خـارج السـفينة ، بـل المهـم أن يكـون يسوع داخلها .

ثلاث نصائح فى
التجارب :

ربنا موجود ..

١٠ ــ لمـاذا أتـالم

عندما مات (داج همرشولد) الأمين العام السابق للجمعية العامة للأمم المتحدة ، بعد أن تحطمت طائرته ، وضعت أسرته إكليلاً من الزهور مكتوباً عليه كلمة واحدة : [لماذا ؟]

عندما تلم الآلام بآخرين ، فإننا نتكلم معهم بعبارات فلسفية ، أما إن ألمَّت الآلام بنا نحن فالوضع يختلف ، ونصرخ بألم : [لماذا ؟]

كم من مرات يُقال هذا السؤال المؤلم لله :
لماذا العذاب ؟ لماذا الأمراض ؟ لماذا المجاعات ؟ لماذا الأعاصير ؟ لماذا الأوبئة ؟

عندما فقد الرابى كوشنر ابنه البالغ من العمر اثنتى عشر سنة من جراء إصابته بمرض نادر ، فإنه سأل نفس السؤال ، والذى أصبح أكثر سلعة تُباع بعد أن كُتِبَ على مُلصَقات : [لماذا تحدث أشياء رديئة لأناسٍ صالحين ؟]

إن صرخة يسوع على الصليب المفعمة بالآلام هى نفسها صرختنا نحن " **إلهى ، إلهى** ، لماذا **تركتنى** " (مت ٢٧ : ٤٦) .

إنها تعلمنا أنه جيد ومرغوب فيه أن نصرخ إلى الله فى الصلاة فى ألمنا وفى كربنا .

إن صرخة يسوع (**إلهى ، إلهى** ، لماذا ؟) هى صدى لسؤالنا الذى طالما نطرحه : [لماذا يحدث هذا لى ؟]
والذى إجابته هى سؤال آخر : [ولماذا لا يحدث هذا لى ؟]

إنه حدث لابن الله نفسه ، فلماذا لا يحدث لى شخصياً أنا الضعيف .

يفيح النهار وتنهزم الظلال .

إن الله حتى وإن كان يبدو أنه غائب تماماً ، إلا أنه بلطفه وكرمه موجود وحاضر تماماً .

تقول (إيڤلين أوندرهيل) : [لم ولن يوجد مسيحى يفلت من تذوق وحشة البرية وهو فى طريقه إلى أرض الموعد] .

ليست تجربة ولا معاناة – مهما كانت الآلام – تضيع أو تخلو من معنى . عندما نؤمن بالله ونضع ثقتنا فيه ونسلم حياتنا له ، لن يوجد شئ بلا معنى ، ولابد أن تتصل الأحداث ومعانيها ببعض .

قال شخص كان قد أصيب بشلل إبان بدء عمله كخادم ، وأصبح يتحرك على عجلة : [أن تسأل لماذا ؟ فهذا سؤال خطأ ، لأننا لن نعرف أبداً لماذا تحدث بعض الأشياء فى هذه الحياة .. ولكن عندما نذهب إلى السماء ، هناك فقط ستجد الإجابة على السؤال : لماذا ؟]

لماذا أتألم ؟

إن الرب يسوع باحتماله الآلام دون أن يكون مستحقاً لها استطاع أن يقدم لنا الحل لأعقد مشكلة وأصعب سؤال يسأله المتألم :

[لماذا أتألم ؟]

فإن كنت لازلت مصمماً على السؤال : [لماذا أتألم ؟] ، فاسأل الرب لماذا هو تألم ؟!

فهو تألم ولم يكن قط مستحقاً للألم ، بل بمحض حريته ومشيئته ومسرته تألم وظُلِم ! وبذلك رفع قيمة الألم من صورة العقاب إلى درجة رائعة من درجات بذل المحبة التى إذا ملأت قلوبنا لحولت الألم إلى لذة .

◆◆ تقابل ملحد مع حداد مسيحى تقى وقال له : [إن إلهك الذى تعبده غريب جداً .. ، تقولون أنه يهتم بجميع المخلوقات ومع هذا فإنه لا يهتم بك .. ها أنا أربح المال الكثير .. أما أنت فعلى وشك الإفلاس ، علاوة على أنه ماتت زوجتك] .

أما الحداد فاستمر فى عمله وأمسك بقطعة من الحديد وفحصها ثم ألقاها جانباً ، وأخذ قطعة أخرى وبعد فحصها شرع فى طرقها ..

أما الملحد فكرر السؤال مرة أخرى طالباً الإجابة ، فرد عليه الحداد قائلاً : لقد أجبتك .

فاندهش الملحد وقال : لكننى لم أسمعك .

فقال الحداد : [بل لقد رأيت الجواب بعينيك .. ففى اللحظة التى فحصت فيها قطعة الحديد الأولى أيقنت أنها غير صالحة فطرحتها على كومة الزبالة ، ولكن بعد فحص القطعة الثانية طرقتها على السندان حتى أتممت غرضى فيها ..

وهكذا الحال معى فإن الله قد وضعنى على سندانه وهو يطرقنى ، ولكن شكراً لله لأننى بين يديه وتجاربه يستمر العمل حتى يتمم بى قصده ، وأما من جهتك فأنا أخشى أن يكون الله قد طرحك على كومة الزبالة ولا يقضى وقتاً فى تطريقك بلا فائدة] .

صديقى القارئ

إن ثقل الآلام يظهر كأنه حجر مربوط فى أعناقنا ، بينما هو فى الواقع ليس إلا الثقل الضرورى لحبل الغواص يأخذه وينزل إلى العمق ليُخرِج اللالئ النفيسة .

كم أحدث الألم من صفاء فى النفس وإشراقاً ما كان ليتلألأ لو لم يكن الألم .

قالت سيدة حكيمة : [الألم درس واطلاع ، وتحمل الألم معناه إدراك ، أما الإدراك فهو الوصول إلى الحقيقة ، وعلى هذا الأساس تتوقف رقة الحواس بأكملها .

فالألم إذن حقيقة ، والغوص فى قرارة النفوس المتألمة لاستجلاء الحقائق الهام ونبوغ] .

وقال (رسكن) : [من التجارب يتكون العقل الراجح .. ومن الخلاص من التجارب يُخلق القلب الشكور .. ومن احتمال التجارب ينشأ الإيمان] .

وقال (بريدجز) : [حقاً إن الألم لواعظ مؤثر مدهش] .

وقال (ترتون) : [إن الآلام فى الحقيقة من اللوازم الضرورية لحفظ الحياة] .

وقال (ألفريد أدلر) : [إن الحياة الحقيقية لا تنال إلا عن طريق تاج أحزان مزين بالأحزان] .

وكتب الطبيب (بول براند) فى كتابه (الألم .. الهبة التى لا يريدها أحد) فقال : [إننا نسكت صوت الألم عندما يجب أن ننصت جيداً لكى نسمعه] .

دنيا بلا ألم

١١ ـ الدواء الضرورى

بينما كان اللص اليمين مصلوباً بجوار الرب يسوع فوق رابية الجلجثة ، حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت ومرفوعاً على صليبه بجسد عارى مزقه الضرب والجلد والجوع ، وملطخ بالدماء .

وبينما كان ينزف الحياة قطرة قطرة .. نظر إلى يسوع فرأى المحبة تتجسد فى كلماته ، والطهارة تتكئ فى عينيه ، فتساءل فى نفسه :

[تُرى مَن يكون هذا الذى يغفر لصالبيه ؟]

وبصوت خافت تتموج فى عباراته كل معانى الندم قال باكياً : **" اذكرنى يارب متى جئت فى ملكوتك "** (لو ٢٣ : ٤٢) .

فلما سمع يسوع هذه الكلمات ، ورأى أنها تتساقط من قلب جريح ، ممتزجة بقطرات دمه ، شعر بأنها لغة سماوية خالدة ، تضم كل كلمات الندم فى معانيها ، فنظر إلى اللص نظرة ملؤها الحب والغفران وقال والسلطان الإلهى يغلف كلماته : **" اليوم تكون معى فى الفردوس "** (مت ٢٣ : ٤٣) .

فضمد جُرحه العميق الذى كان يقطر دماً منذ قليل .

فيا له من نجم ساطع ، يضئ الطريق أمام كل زورق تائه فى الحياة .

يا له من إيمان فريد ، يعطينا برهاناً جديداً على أن أعمق وأعظم الأسرار السمائية تنكشف لأى إنسان تنبه ضميره فجأة ، وأحس بحاجة

ألم يقل لنا الرب يسوع : " أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم " (مت ٥ : ٤٤) .

فكيف تمارس تلك الوصايا إن لم يكن هناك مَن يعاديك ومَن يلعنك ومَن يبغضك " **لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم** " (مت ٥ : ٤٦) .

١٢ ـ صورتــه فينـا

إن صـائغ الفضـة ، يأخـذ سـبيكة مـن الفضـة ويضـعها علـى النـار ويتركها تلتهب بالحرارة ..

وهو يضعها فى وسط النار ، حيث تكون الحرارة أشد ، حتى تلتهم كل المواد الغريبة من الفضة .

والصائغ يجلس بجانب النيران طيلة الوقت الذى يمحص فيه الفضة ، ممسكاً بالفضة ، ومركزاً عينيه عليها طيلة الوقت وهى فى النار ، لأن الفضة إذا تُركت فى النار للحظة زائدة عن الحد فقد تحترق وتبيد .

والصائغ يعرف أن الفضة قد تمحصت تماماً . حينما (يرى صورته فيها) .

صديقـى

إن الله يمحصنا كتمحيص الفضة فى نار الآلام والتجارب ، لكى ينقينا من كل ما هو غريب ، ومن كل الشوائب التى تعكر صفاء حياتنا .

إنه يمحصنا وهو ممسكاً بنا بيديه الحانيتين ، وعينيه علينا طيلة وقت الآلام والشدائد .. ولا يدعنا نُجرَب فوق ما نحتمل حتى لا نحترق ونبيد .

إنه يجعلنا نجوز نار الألم حتى يرى صورته فينا .. **" لأنه مثل نار الممحص .. فيجلس (الله) ممحصاً ومنقياً للفضة "** (ملا ٣ : ٢ – ٣) .

إن التجارب التى تقابل الإنسان الروحى تزكى عنده بواطن الأمور ، وترده دواماً إلى جوهر الطبيعة الإلهية الساكنة فيه ، وترفعه من حيز الألم إلى تلك الأمور السامية ، وتفتح لديه آفاقاً ، تزيده أصالة وصلابة فى اقتناء المبادئ التى تكون عنده أغلى من حياته على الأرض .

التجارب بالنسبة له تكون كالنار بالنسبة للبخور ، إذ يفيح أريجه فيتزكى المكان كله .

التجارب بالنسبة له تجلى أساريره الداخلية ، لتعلن عن قبول ما وراء الألم مؤكدة طبيعته السمائية ، لأنه غير محدود بمحدودية الألم ، فهو مخلوق سمائى عنده التسامى الذى يحلق بروحه فى سماء الفضيلة .

التجارب له لا تضعف ولا تثنى من عزمه ، بل أنه يكون مستعداً أن يقدم حياته كلها من أجل الاحتفاظ بمبادئه .

لقد محص الرب (أيوب الصديق) فى أتون نار التجارب ، لكى ينقيه من الشوائب . فرغم أنه كان بحسب شهادة الله عنه **" ليس مثله فى الأرض . رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر "** (أى ١ : ٨) ، إلا أنه كان معتزاً ببره وعظمته ، فقد كان يتغنى ويقول : **" غسلت خطواتى باللبن ، والصخر سكب لى جداول زيت . حين كنت أخرج إلى الباب فى القرية وأهيئ فى الساحة مجلسى . رآنى الغلمان فاختبأوا ،**

ويقول (جيرى فولول) وهو راعى فى كنيسة فى لينشبرج فيرجينيا : [إن العظمة الحقيقية للشخص عادة ما تتناسب مع قابليته لتحمل التجارب] .

صديقى

هل تألمت كثيراً ؟ هل فقدت صحتك ؟ هل عرفت لماذا لم يُخرج الرب الذهب من البوتقة قبل أن يتنقى وتزول منه الشوائب ؟

ستدرك أنك الآن تأخذ الشكل (المجيد) لنفسك الحقيقية التى رأتها مسبقاً عين الرب وحدها .

لقد أعجبنى أحد القديسين وهو يطلق على الآلام التى تصيب المؤمن التقى اسم (سياط الحب) قائلاً : [كما أن الزيتون لا يخرج زيته اللذيذ الطعم ، الزكى النكهة ، إلا بعد عصره ، كذلك شعب الله لن يصل إلى الكمال إلا بعد أن يُعصر تحت حِمل الآلام] .

يقول القديس (يوحنا ذهبى الفم) عن (أيوب الصديق) : [لو لم يضرب الشيطان أيوب بالضربات المختلفة والقروح ما ظهرت لنا أشعة إيمانه البراقة ، بل بقيت مغطاة فى مكانها ، ولو لم يجلس فى الرماد ما كان ليبلغنا شئ عن فيض غناه الروحى] .

إن الألم فى نظر الذين يعرفون الله .. فن من أرقى الفنون ، فالله غرس بذور الدموع فى الأرض ليخصب بها مادة حياتنا .

١٣ – لنكون نافعين

إذا كنا نرغب فى أن تكون حياتنا خلاَّقة نافعة ، فيجب أن نرضى ببعض التعرض للأذى .

يجب أن نرضى باحتمال الألم إذا لزم الأمر ؛ لنكون نافعين مثمرين .

إن أغلب الناس لا يحتملون أقل الألم فى حياتهم ، وعليهم أن يعوِّدوا أنفسهم على الصعاب ، وأن يكونوا ذوى جلود خشنة .

إنهم لا يحتاجون إلى صَدَفة يختبئون فيها كالبُزاق أو المَحار .

ولا إلى بيت عظمى يعيشون فيه كالسلحفاة .

إذا كنا نريد أن نثق بالناس ونحبهم ونبادلهم الأفكار والعواطف ، علينا أن نكون منفتحين لهم ومستعدين للمخاطرة فى احتمال بعض الأذى والألم .

والذى يحدث هو أننا عندما نتعرض للألم أو الأذى ، نجد أنفسنا أمام طريقين ، وعلينا أن نسير فى أحدهما دون الآخر ..

فإما أن نبنى فى وجه الأذى (جداراً) سميكاً نحتمى وراءه فلا نعود نحس بأى أذى ، فنكون كالمحارة أو البزاقة ، نعيش فى عالمنا بعيداً عن الناس وعن الألم .

وإما أن نحوِّل الخد الآخر ونبقى معرَّضين للأذى ، ولكن نواصل السير بشجاعة ونكون خلاَّقين مثمرين .

البزاقة لاتحتمل أى ألم ، وتعيش فى صدفتها معزولة عن كل شئ .

إنها تحيا حياة مأمونة ، ولكن غير خلاَّقة .

وكذلك المَحارة التى تعيش كالبزاقة فى صدفة حصينة ، ولكن فى قاع البحر تقبع فى مكانها ولا تفعل شيئاً .

فالألم يتحول عنده من كونه قوة هدامة إلى قوة خلاقة ، وعذاب الموت يتحول إلى فعل شهادة ، وإخفاق العدالة إلى ذبيحة فادية .

إن كل واحد منا مدعو فى نقطة ما من الحياة أن يواجه الآلام فى هذا العالم .

والسؤال الحاسم هنا .. هو كيف نواجه هذه الآلام ؟

فبمواجهة الآلام بطريقة إيجابية ، بقبولها طوعياً ، يمكننا أن نجعل الألم خلاقاً .

فالألم يمدنا بقوة للتغيير لا نملكها فى العادة .

قال (سى . إس . لويس) : [الألم هو بوق الله]

إنه طريقة الله لإفاقتنا من حالة السبات الروحى .

إن مشاكلنا ليست عقاباً ، لكنها دعوات للاستيقاظ من إله محب .

فى رواية (سياحة المسيحى) تخيل كاتبها (يوحنا بنيان) أن السائح المسيحى فى طريقه إلى السماء ، مر بسوق اسمه (سوق الأباطيل) فيه بضاعة أهل العالم ..

ولما دعوه ليشترى بضاعتهم ، رفض .

فجروه للمحاكمة أمام أربعة قضاة هم : [كاره الحق ، وعديم الصلاح ، والحقود ، والخليع] .

فأصدر القضاة حكمهم بالتخلص منه ، لأن وجوده يحرمهم من الراحة .

طوبى لك – أيها الحبيب – إن كنت تتألم من أجل مبادئك المقدسة .

طوبى لك إذا حملت فى جسدك سمات الرب يسوع . (غل ٦ : ١٧) .

طوبى لك إذا اضطهدوك لأنك تعيش بالتقوى فى المسيح يسوع (٢ تى ٣ : ١٢) .

اعلم أن المثمرين والناجحين والنافعين فى حياتهم هم الذين دائماً يُضطهدون .

فالأحجار دائماً ترمى على الأشجار المحملة بالثمار ، ولكن مَن الذى يتعب نفسه فى رمى حجر واحد أو حصاة واحدة على الأشجار الخالية من الثمار ؟!

عزيزى

هل تريد أن تكون بلا نفع ؟

أم إنك تريد أن تكون مثمراً فى حياتك ؟
إن أردت أن تكون خلاقاً مثمراً فاعلم أنه :

لا يُرمى بالأحجار سوى الأغصان

١٤ ــ آلام ومرائـر

لقد وصف أبينا يعقوب حياته لفرعون بقوله : " **قليلة** وردية **كانت أيام سنى حياتى** " (تك ٤٧ : ٩) .

كانت أيام حياة (يعقوب) ردية ، كلها آلام وأحزان ، ففى شبابه انتُزِعَ عن الأحضان الأبوية ، وعن الأصدقاء الأعزاء ، وخرج وحيداً لكى يقضى أفخر أيام حياته غريباً فى أرض غريبة .

كانت خدمته لخاله (لابان) مضنية وشاقة ، كان فى النهار يأكله الحر ، وفى الليل الجليد (تك ٣١ : ٤٠) .

لم يتخلص من (لابان) إلا بشق النفس ، ولم يكد يتخلص منه حتى واجه خطراً أكبر ، كان عليه أن يلتقى بأخيه (عيسو) الذى يطلب نفسه

ذلك فإن (يعقوب) هذا نفسه عندما وقف أمام فرعون – وهو أعظم ملوك العالم فى عصره – انحنى أمامه فرعون بشغف يلتمس منه البركة **" وبارك يعقوب فرعون "** (تك ٤٧ : ١٠) .

صحيح أن (يعقوب) اشتهر فى بداية حياته بالمكر والخداع ، كانت طبيعته قد أفسدتها محبة الذات والميول الجسدية والأنانية .

استغل جوع أخيه (عيسو) استغلالاً سيئاً ، وخدع أباه الشيخ العجوز مدعياً أنه (عيسو) ، وأخذ البكورية بالخداع .

وكوَّن ثروة على حساب خاله (لابان) ، واستخدام وسائل مليئة بالمكر والخداع للوصول إلى أغراضه .

لكن الآلام لاشت كل هذه ، وخلقت إنساناً جديداً . ولا تزال الآلام تفعل هكذا بكل الذين نالوا الطبيعة الجديدة ، والذين يتعلمون بوداعة الدرس الذى تقصد محبة الله أن تعلمهم إياه(٥٨)

إن كل هذه العيوب التى كانت فى (يعقوب) ذابت فى بوتقة الآلام التى صُهِرَ فيها ، فوصل إلى عظمة أدبية أمكن أن تؤثر حتى فى فرعون أعظم ملوك العالم فى ذلك الوقت .

فلا تنفر أو تهرب أيها القارئ الحبيب من الآلام والأحزان . إنها تأتى لكى تضع التاج فوق رأسك .

لقد قضى (يعقوب الشطر الأكبر من حياته فى المنفى عند خاله (لابان) محتملاً أقسى الظروف فى الآلام والأحزان .

على أن (يعقوب) بعد أن كان مدبراً للمكائد ومخادع ، تطهرت أخلاقه بما جازه من محن شديدة ، فإن النير ان التى أُلقى فيها كانت

ولقد عرف كيف يتخلص من انتقام عيسو عندما رجع إليه .
ولكن الفواجع التى مررت حياة يعقوب من حياة الغربة التى عاشها فى المنفى ، وخلع فخذه الذى عاش بسببه يعرج بقية حياته ، وموت راحيل زوجته المحبوبة ، وفقدانه لابنه (يوسف) .
كل ذلك جعل رأسه يملأها الشيب بسبب تراكم الأحزان .
وكثيراً ما امتلأت قلوبنا حزناً بسبب الآمال التى هزأت بنا ولم تتحقق .
ولكن يا لها من تعزية رائعة نجدها عندما نذكر أن قديسى الكتاب المقدس ، أمثال ابراهيم واسحق ويعقوب وإيليا وغيرهم ، كانوا بشراً تحت الآلام مثلنا .
فإنهم أخطأوا وتذمروا وتمردوا مثلنا .
وأن أقدس قديسى السماء لم يخلقوا من طينة غير طينتنا . وأنفس أوانى الله لم تُصنع من مادة أسمى من المادة التى نحن منها .
انظروا إلى الصخر الذى منه قُطعوا ، وإلى نُقرة الجب التى منها حُفِروا (إش ٥١ : ١ ، ٢) ، واحكموا إن كان هناك أى تمييز بين أصلهم وأصلكم .
وعندئذ تشجعوا لأنه إن كان الله قد استطاع أن يقيم من هؤلاء الرجال رؤساء وملوكاً ، فلاشك فى أنه يستطيع أن يتمم نفس الأمر معنا .
قد يكون تقويمنا وتهذيبنا وصقلنا بنار الآلام ، ولكن النتيجة ستكون مجيدة .
سيرن الصوت فى كل الأبدية بتسبيح ذاك " **المقيم المسكين من التراب . الرافع البائس من المزبلة ،ليجلسه .. مع أشراف شعبه** "(مز ١١٣ : ٧ ، ٨) .
عاش يعقوب طريداً من بيت أبيه وهو لا يزال فى ميعة الصبا ، أجيراً فى خدمة خاله وهو فى أفخر أيام رجولته ، مثقلاً بالمتاعب والهموم فى كهولته .. غريباً فى أرض غريبة فى شيخوخته ..
قليلة وردية كانت أيام سنى حياته وغربته فى الأرض .
لقد انصبت على يعقوب جامات الآلام والأحزان ، فقد نُزع من أوطانه وهام على وجهه يسعى إلى بلاد بعيدة ، وقضى زهرة العمر

وإذ كان يعرج على فخذه أحنى هامته أمام (عيسو) . دفن زوجته المحبوبة راحيل ، تلظى بنار المصائب التى جلبها عليه أبناؤه . حُرِمَ من (يوسف) ، وأخيراً نراه يئن لأن أيام سنى حياته كانت قليلة ورديئة .

قليلون هم الذين سلكوا طرقاً أوعر من طريق يعقوب .

وقليلون هم الذين كُللت هاماتهم بأكاليل من الشوك أشد صلابة وقسوة من الأشواك التى كللت هامته .

كانت سنى حياته مليئة بالأحزان والمتاعب ، تلك التى لفظت أنفاسها الأخيرة فى أرض الفراعنة (تك ٤٩ : ٣٣) .

لقد خدع (يعقوب) أباه (اسحق) بكذب مدعياً أنه (عيسو) ، ثم استخدم اسم الله زوراً وبهتاناً للتستر على أضاليله ، فعندما سأله (اسحق) عن كيفية عودته بهذه السرعة ، تجرأ بأن يقول : **" إن الرب إلهك قد يسَّر لى "** (تك ٢٧ : ٢٠) .

لقد وجد نفسه مرغماً على أن يتابع خداعه وكذبه وأضاليله خطوة فخطوة ، عالماً أنه مدفوع بتيار جارف إلى محيط من القاذورات ، ومع ذلك لم يجرأ على الوقوف لصد هذا التيار ، بل وجد نفسه مضطراً إلى التقدم للتعمق فى ذلك المحيط .

وعندما طلب أبيه أن يجسه ويشمه ويقربه إليه . تقدم إليه ليثبت لأبيه الذى كلت عينيه عن النظر بأنه (عيسو) ، وذلك بعد أن لبس ملابس (عيسو) ووضع على يديه وعنقه جلود معزى . حتى يكون أشعر مثل (عيسو) .

ورغم كل ما فعله يعقوب . فهذا هو الإنسان الذى أدخله الله فى بوتقة الآلام ، ليصير بعد ذلك رئيساً عظيماً أمام الله ، والذى استطاع أن يجاهد مع الله .

إن ليل البكاء والنحيب فى حياة (يعقوب) أعقبه نهار الفرح والغبطة ، تطلع الفرح والسرور من الكوة ، أما الحزن والتنهد والكآبة فقد ولَّت هاربة .

لقد رقص قلبه طرباً ، عندما مثل بين يديه أبناؤه كاملين ، وفوق كل ذلك أن (يوسف) سيداً على مصر ، وهل من عجب إذا جمد قلب ذلك الشيخ العجوز المحطم فى داخله بسبب هذا الخبر المفاجئ .

لقد خرج من بوتقة الألم قديساً عظيماً انحنى أمامه فرعون أعظم

ملوك عصره ، لكى يأخذ البركة منه . وكان يعقوب فى ذلك الوقت شيخاً متقدماً فى الأيام ، منحل القوى ، أعرج مهاجراً ، مر النفس بسبب الظروف القاسية التى مرت بها حياته ، منحنى الظهر ، كليل النظر .

ومع ذلك وقف أمام فرعون تحيط به هالة من المجد الأدبى ، حتى اضطر فرعون أن ينحنى أمامه لينال البركة من يدى يعقوب الممدودتين المرتعشتين ، وصوته الخافت .

إذن فلابد أن يكون فى يعقوب ما عظمه عن أعظم ملوك العالم .

قال كاتب : [ليست الأيام الصافية ، ولا الطرق المحاطة بالورود ، ولا السنون الخالية من الهموم ، والخالية من الأحزان والدموع ، لكن القوة لتحمل ثقل الهم البشرى ، والنعمة لتحيا حياة مستقيمة وتحفظ ثيابك بيضاء ، وأن تعبر طريقك بنجاح هذا هو ضمان الله لك]

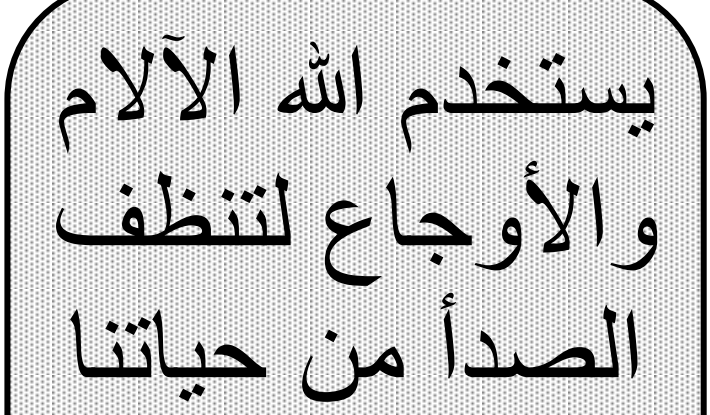

١٥ ــ الدخـان الصاعـد

تحطمت سفينة أثناء سفرها فى عباب البحر ، ولم ينج إلا واحد من ركابها ، جرفته الأمواج وألقته على جزيرة صغيرة مهجورة .

ولما أفاق الرجل الذى كان تقياً يخاف الله ، لم يجد وسيلة أمامه سوى الصلاة لله لكى ينقذه .

وفى كل يوم كان يدور ببصره فى عمق البحر لعله يجد فى الأفق سفينة تأتى لتنقذه ، ولكن لم يجد شيئاً .

وإذ أرهق من البحث والتعب ، قرر أن يبنى كوخاً صغيراً من بقايا الخشب العائم بجانب الشاطئ ليأويه من أجواء الطبيعة .

ولكنه ذات يوم ، وبعد أن تجول ليجمع من حوله ما يقتات به ، رجع إلى بيته ليجد كوخه الصغير يشتعل بالنار ، وقد التف الدخان صاعداً إلى السماء .

فحزن جداً ونام ، وفى صباح اليوم التالى ، استيقظ على صوت سفينة تقترب من الجزيرة لتنقذه ، وحينما سأل قائدها : [كيف عرفت أننى هنا ؟]

أجاب القبطان : [لقد رأيت الدخان الذى أصعدته أنت عالياً ، وهذه علامة عندنا نحن البحارة بها نعرف أن شخصاً ما يطلب النجدة].

إننا من السهل أن تثبط همتنا حين يصيبنا مكروه ، ولكن ينبغى ألا نيأس أو يخور قلبنا فينا ، لأن الله هو مدبر حياتنا ، حتى ونحن فى عمق الألم والمعاناة .

أخـى الحبيـب

تذكر فى كل مرة يحترق بيتك ، أى يضيع كل ما وضعت عليه آمالك .

هذا جعل (القديس أغسطينوس) يقول : [يا للخطأ السعيد الذى أعد لنا هذا الفداء العظيم] .

تأكد أيها الحبيب .. إنه لا يمكن أن يحدث لك شئ يتعذر على الرب أن يستخدمه لخيرك .

إن الحياة هى خليط من الارتفاعات والانخفاضات .. إن الله يسمح لنا أن نختبر النقاط المنخفضة فى الحياة حتى يعلمنا دروساً ما كان من الممكن لنا أن نتعلمها من أى طريق آخر .

يقول القديس (إيرينيئوس) : [إن الله يُرسل لنا بعض بركاته العظيمة من خلال أشواكنا ، ويُصبح من المؤسف إن كنا ندفعها بعيداً عنا ونتجاهلها ...

يجب أن نثق فى الله باطمئنان أنه يغنى حياتنا ، وهو الذى يعرف متى يكون الألم مفيداً .

ومتى تكون الخسارة هى السبيل الوحيد للربح ..

إن الله يعطينا الأشواك ليباركنا بطريقة ما ، ونحن سوف نكون باستمرار الخاسرين عندما نهتاج ونرفض شوكتنا] .

إن الفرق بين الآلام التى نجلبها لأنفسنا بسبب شرورنا ، والآلام التى يسمح الله أن يجيزنا فيها لتهذيبنا – كالفرق بين الحبال التى يقيد بها السجان أحد المذنبين ، والأربطة التى يضمد بها الطبيب جراح المريض .

لقد أُصيب القديس بولس الرسول بشوكة فى جسده ، فصلى إلى الله ثلاث مرات بتوسل ، لكى يرفع عنه هذه الشوكة ، ولكن الرب رد عليه بآية ذات نعمة وقدر عظيم ، إذ قال له : **" تكفيك نعمتى لأن قوتى فى الضعف تكمل "** (٢ كو ١٢ : ٩) . ويُفهم منها امتناع الرب عن استجابة الصلاة والطلبة ، على أساس أن الرب من جهته يستجيب سراً ، بأن يؤيد الإنسان الذى يستصرخ إلى الله من الضعف ، بأن يهبه قوة تجعل السائل يبلغ بها إلى الكمال بدون أن يعمل له ما يريده .

وهذا الرد فى الحقيقة تقريباً هو الذى يفوز به المصلون من أجل ضعفاتهم ، لأن الرب يسوع وعد أنه يستجيب طالبيه ، نعم يستجيب سراً بأن يمدهم بالقوة التى تكملهم فى النعمة ، لأن معظم صلوات الناس وطلباتهم هى من أجل أمور هذه الحياة ، وهذا غير وارد فى أجندة الصلوات لدى الرب .

فلابد أن يتعلم أولاد الله أن لا يصلوا من أجل حياة هذا الدهر الفانى . وبولس الرسول يقول إنه فى نهاية المطاف سيكون الذى يستخدم هذا العالم كالذى لم يستخدمه (١ كو ٧ : ٣١) .

فسيان عند الرب إن كنا أغنياء أو كنا فقراء ، أو إن كنا أصحاء وأشداء أو ضعافاً ومتوعكين ، لأنه قادر أن يجعل الضعيف أشد وأقوى من القوى ، وقادر أن يشدد المريض ليكون أفضل من السليم .

لذلك علينا أن نسلم حياتنا للرب لُيجرى كل أمورنا حسب مسرة مشيئته

الله يستخدم الآلام والضيقات لإعطاء نعمة أعظم

١٦ ــ صرخة ألم

ذهب أب كاهن مع بعض الخدام لزيارة مريض طريح الفراش ، فوجده راقداً على فراشه فى غرفة منزوية عن المنزل ، وحركته ضعيفة جداً ، وشعره طويل ولحيته وأظافره ، ويعانى من جفاف شديد .

فقام بإعطائه سوائل دافئة ، وقام الخدام بحلاقة ذقنه وغسل جسده ، فقد اتضح لهم أن الماء لم يلمس جسده منذ شهور .

لم يرق ما حدث للزوجة لأنها تنتظر اليوم الذى يرحل فيه زوجها ويفارق الحياة ، لكى تلحق بابنها فى أمريكا .

كان الحل بسيط هو ترك الشباك الملاصق لسرير زوجها مفتوحاً

مرارة الألم
تجعلنا لا نتمسك
بالأرض
والأرضيات ،
بل نشتاق إلى

١٧ ــ الصرخـة الأخيـرة

قـال الـرب لأبينـا ابـراهيم : " **إن** صـراخ **سـدوم وعمـورة قـد كثـر ، وخطيتهم قد عظمت جداً** " (تك ١٨ : ٢٠) .

يا لـه من تعبير غريب ..

فى هدوء الصحراء العميق جلستا تلك المدينتان العاصيتان ، ولكن رغماً عن هذا الهدوء العميق حسب الظاهر .. فقد سمع الله صراخـاً .

صـراخ الأرض التى أُكرِهت على حمل ذلك العار .

صـراخ المخلوقات غيرَ الناطقة التى كانت تئن وتتمخض بسبب الألم البالغ .

صـراخ المظلـومين والمنسـحقين الـذين كـانوا يرزحـون تحـت مظـالم البشرية ومطامعها وشهواتها الدفينة .

صـراخ العبيد والزوجات والبنين .

كان هذا هو الصراخ الذى وصل إلى أذنى رب الجنود .

كل خطية لها صراخاً .. فقد قال الرب لقايين بعد أن قتل هابيل أخيه : " **صوت دم أخيك** صارخ **إلىَّ من الأرض** " (تك ٤ : ١٠) .

كان دم هابيل يصرخ إلى الله من الظلم ، فكل خطيـة لهـا صـراخاً ، ولابد أن يستمر هذا الصراخ ، ما لم يسكت بصوت أقوى ــ صوت دم المسيح الذى " **يتكلم أفضل من هابيل** " (عب ١٢ : ٢٤) .

ويصرخ أفضل من دم أى إنسان فى الوجود ..

إن كان لكل خطيـة صـراخها ، فكم يكون مجموع أصوات صراخ خطايا إنسان واحد ؟

وكم يكون مجموع أصوات صراخ مدينة بأكملها ؟

وكم يكون مجموع أصوات صراخ العالم كله ؟

إن صراخ العالم كله لا يسكته إلا صـرخة أقوى منـه ، لـذلك صـرخ الرب يسوع صرخته الأخيرة التى أعلن بها إتمام فداء البشرية ..

" فصرخ **يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح** " (مر ١٥ : ٣٧) .

إن صـرخة الـرب يسـوع علـى الصـليب " قد أكمل " (يو ١٩ : ٣٠) كانت هى صرخة الخلاص المقدمة لجميع العالم . إنها صرخة الانتصار ..

لا تظهر إلا وهى مصلوبة .

هذه هى الصرخة التى دوت فوق رابية الجلجثة عندما بلغ الرب يسوع نهاية عمله الجبار .

يا لها صرخة مجيدة من صرخات النصر ..

" **قد أكمل** " عمل الفداء ولم يبق شئ .

فيا مَن قد ملأت قلوبكم الأحزان والآلام . تعلموا أن تثقوا فى حكمة القدير التى لن تخطئ قط ..

اعلموا أن ذاك الذى جاز آلام الجلجثة المبرحة بصرخاتها الأليمة التى تصاعدت من أعماق قلبه ، مستعد أن يكون رفيقاً لكم فى محنتكم . ويعبر بكم من وادى الدموع إلى الأبدية السعيدة .

يا لها من خدمة جليلة لا تُقدر ، تلك التى تممها المسيح بآلامه نحو تحويل مجرى الآلام ، وإقناع المتألمين أنهم بتعب أنفسهم يغنون العالم .

إن ذلك الصراخ الصامت الذى يصدر من القلوب المهمومة ، يكون مسموعاً أكثر من كل موسيقى السماء .

[illegible]

ربى وإلهى

إنى أجد نفسى أمام جبال عالية لا أستطيع تسلقها .. وطرق متشعبة لا يمكننى اجتيازها ، ووديان عميقة لا أستطيع اختراقها ، وقناطر معقدة لا أستطيع عبورها ..

كل أولئك لا يمكننى التغلب عليها إلا بك [illegible]

أخيراً :

[ستعرف أنك قرأت كتاباً جيداً ، عندما تقلب الصفحة الأخيرة ، وتحس كأنك فقدت صديقاً] . (**أحد الفلاسفة**)

الفهرس

م	الموضوع	رقم الصفحة	م	الموضوع	رقم الصفحة
١	صرخة الهجران	٥	١٠	لماذا أتألم ؟	٥٤

بنعمة ومعونة الرب

صدر عن هذه السلسلة

١ - صرخة خادم	٢٨ – وأنا أريحك .
٢ - دموع الحب	٢٩ - لمن أنت ؟
٣ – صياد الناس	٣٠ – كيف أدعوك ؟
٤ – أين الحب ؟	٣١ – تليفون السماء .
٥ – عش الحب .	٣٢ – أنشودة الحياة .
٦ – رحلة التحدي .	٣٣ - ماذا زرعت ؟
٧ – صُناع الحياة .	٣٤ - ما هي رسالتك ؟
٨ - إليك أنت (الجزء الأول)	٣٥ – اتبعني أنت .
٩ - إليك أنت (الجزء الثاني)	٣٦ - صوت صارخ .
١٠ - إليك أنت (الجزء الثالث)	٣٧ - ذئاب وحملان
١١ – أشواك الورد .	٣٨ - التفت إليَّ .
١٢ - آلام الزمان .	٣٩ - من أجلك .
١٣ – طريق الأرض .	٤٠ - لسان وآذان .
	٤١ – فن الصمت